الكلونيل اسكوت

مذكرات الكلونيل اسكوت

عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر

1841

ترجمة وتعليق:
إسماعيل العربي

الكلونيل اسكوت

د. كمال بن صحراوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة ابن خلدون. تيارت

مذكرات الكلونيل اسكوت

عن إقامته في زمالة الأمير عبد القادر

1841.

د. كمال بن صحراوي
أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة ابن خلدون. تيارت

ترجمة وتعليق

إسماعيل العربي

الشركة الوطنية للنشر والتوزيع 1981

مقدمة المترجم

يمكن اعتبار مذكرات الكلونيل اسكوت (Scott) بمقدمتها وملحقاتها عملا تاريخيا قائما بنفسه ، ومن ثم ، فقد كان من الطبيعي ان يقتصر مجهود المترجم على نقلها الى اللغة العربية مع الشروح والتعليقات الضرورية ، خصوصا ، لتوضيح أسماء بعض الأعلام والأماكن. على أنه بعد التفكير والتروي ، بدا لي أن تقديم هذا الكتاب وشخصية الكلونيل اسكوت للقارئ العربي شيء قد يكون مفيدا ويساعده على تكوين فكرة تمهيدية عن الكتاب الذي هو مقبل على قراءته ، في الوقت الذي يستأنس فيه بالشخصية التي سيرافقها في سلسلة من المغامرات والأعمال في فترة تمتد على سنة كاملة .

والظروف التي ستتعرف فيها على شخصية الكلونيل اسكوت ، ظروف غير عادية ، بل هي ظروف دقيقة للغاية . فان الجزائر التي استقبلت الكلونيل اسكوت ، كانت قد تحررت من قيود معاهدة تافنا منذ أكثر من سنة ، والحرب فيها على أشد ما تكون ضراوة .

فإذا كانت المقاومة التي يقودها الامير عبد القادر قد اكتسبت في هذه الفترة قاعدة مهمة من وحدة الصف والتجارب في فنون القتال والتنظيم العسكري والتخطيط الاستراتيجي (ولاسيما فيما يتعلق بوضع خط دفاعي يتكون من المدن الجنوبية المحصنة مثل تازا وتكدمت وسعيدة) . فان قوات العدو ـ في مقابل ذلك ـ قد زاد عددها وعتادها وتأقلمت لظروف الحرب الجزائرية ، كما زادت جراة القادة العسكرين في عمليات التوغل التي أسفرت عن احتلال بعض المدن الداخلية . وكذلك تحسنت وسائل القمع والتدمير التي يستعملها الجيش الفرنسي ، في الوقت

مفكر سياسي واسع الاطلاع دقيق الملاحظة في كل ما يتعلق بشؤون أوربا السياسية . ومن ثم . فقد اشفق من ان تقضي طعنة رمح اورصاصة طائشة على إمكنيات التعاون الخصبة في هذا الضابط . وكذلك قرر . باتفاق معه،ان يجعل مقر عمله في القيادة المركزية في تكدمت ثم في الزمالة . وان تكون طبيعة هذا العمل سياسية ، عسكرية

وهكذا كان دور الكلونيل اسكوت من النوع الذي يقوم به الدماغ الايكتروني في عصرنا . دور خبير ذي مكانة خاصة من النوع الذي ينعتهم المصطلح الانجليزي (Brain-Truster) . فكان يجمع المعلومات العسكرية والسياسية والاقتصادية التي تحولها اليه مختلف الجهات ويخزنها ثم يغربلها ويصفيها وينسقها لتكون اساسا صالحا للقرارات والعمليات العسكرية .

وبعد فترة سنة من الدرس والعمل والتنقل بين تلمسان ومعسكر وتكدمت والزمالة . جمع الكلونيل اسكوت حصيلة معتبرة من المعلومات تدهشنا بدقتها وسعتها معا . ولاسيما . إذا عرفنا ان الرجل لم يتعلم من اللغة العربية شيئا يذكر . باستثناء تلك المجاملات التي كان البعض يوجهها اليه مثل «الكافر . والكلب . ابن الكلب» (وهي تعابير مازالت جارية في قاموس التخاطب بيننا إلى اليوم) والتي يحلو للكاتب ان يردّدها في مذكراته كثيرا كما لوكانت مصدر لذة خاصة !

ولما بدت في الافق الدولي (الاوربي) بوادر تشير الى وجود اتجاه لعقد مؤتمر للحلفاء يعالج مشكلة وحدة اراضي الامبراطورية العثمانية التي كانت الجزائر لاتزال تعتبر من ضمنها . من وجهة نظر القانون الدولي . عرض الكلونيل اسكوت ان يقوم بدور سفير معتمد للأمير عبد القادر ويمثل الجزائر في اي ملتقى دولي يعقد لهذه الغاية . فقبل الأمير اقتراحه بعد مناقشة مختلف نواحي الموضوع ومنحه التفويض واوراق الاعتماد التي تخوله القيام بهذه المهمة .

انه لمن المؤسف حقا . ان يكون الكلونيل اسكوت قد تسرع (ونحن نفهم الاسباب التي دعته الى هذا التسرع) في نشر كتابه عقب عودته الى لندن مباشرة . فلو تمهل قليلا حتى ينتهي من المهمة التي كلفه بها الأمير . لأمكنه أن يضم الى هذا الكتاب صفحات لا نشك في أنها تكون قيمة ، يقدم لنا فيها نبذة عن اتصالاته مع السفارة الفرنسية (التي قدمت تقريرا عنها الى جيزوت رئيس الحكومة) . ومع اللورد «أبردين» ، وزير الخارجية البريطانية،الذي رفض استقباله بوصفه سفيرا للامير عبد القادر . ولكنه مع ذلك استقبله بوصفه مواطنا بريطانيا يريد ان يحدثه في شؤونه الخاصة » . وإذا لوجدنا بين أيدينا مصدرا مباشرا وأصيلا عن جانب من سياسة الامير عبد القادر الخارجية .

ومهما يكن من امر . فان المعلومات القليلة التي استقيتها من مصادر اخرى عن نشاط الكلونيل اسكوت في هذه الفترة . قد ضمنتها الفصل الذي خصصته لعلاقات الأمير عبد القادر مع تركيا وانجلترا في كتابي : «العلاقات الديبلوماسية الجزائرية في عهد الامير عبد القادر» ويكفي ان أشير هنا الى ان الامير قد حمل الكلونيل اسكوت ، إلى جانب مهمته السياسية ، ثلاث رسائل وجهها الكلونيل بواسطة وزارة الخارجية البريطانية : احداها الى السلطان عبد المجيد والثانية الى الصدر الاعظم والثالثة الى حمدان خوجه الذي كان يقيم آنئذ في الاستانة وكانت له اتصالات وثيقة بالباب العالي .

* *
*

والآن . لابد وان يتساءل القارئ : ما هي المساهمة التي تقدمها مذكرات الكلونيل اسكوت باعتبارها مصدرا تاريخيا ، وباعتباره هو شاهد عيان لكثير من الحوادث والوقائع التي يسجلها ؟

إننا إذا اغضينا النظر عن قيمة الكتاب الأدبية (والكتاب مهم من ناحية الوصف الأدبي . والكاتب له اطلاع واسع على الأدب الاسباني والفرنسي الى جانب الأدب الأنجليزي) . واقتصرنا في تقويمه على أهمية المادة التاريخية التي يقدّمها ، فسنجد أن قيمة الكتاب تستند على اعتبارين أساسيين :

1 — انه يمثل ملاحظات شاهد عيان في المغرب وفي الجزائر ، حيث سجل انطباعاته الحية عن الحوادث أولا بأول ، بحيث يذكر تاريخ اليوم ، بل وساعة وقوع الحادث في بعض الاحيان .

2 ـ إن الكلونيل اسكوت . هو الكاتب الأوربي الوحيد (ونحن لا نعتبر «ليون روش» لانه كذاب ومزور مرتد) الذي كتب عن المقاومة الجزائرية من داخل المعسكر الجزائري ، وقد سجل قلمه كل ما خطر بباله ونشره في انجلترا بين بني قومه بكل حرية ، دون أن يتدخل أحد لمراجعته أو حتى للإطلاع عليه ، حيث أن الكتاب مكتوب بالانجليزية (ولم يترجم) ووضعت صيغته النهائية في لندن.

والمعلومات التي يقدمها الكلونيل اسكوت ، تجد ضمانا ادبيا كافيا في كون اسكوت انجليزيا يعتز بجنسيته ، ومسيحي العقيدة ويجاهر بمسيحيته (وهذا يبعد بنا عن عدد من الانتهازيين

الذين اعتنقوا الاسلام للجوسسة أو لأغراض خاصة ثم خانوا الاسلام والجزائر ، مثل ليون روش) ، وان هذا الرجل الذي يضع الشرف العسكري فوق كل اعتبار كتب ما كتبه عن الجزائر (مثل ما كتبه عن اسبانيا التي جرد سيفه وقلمه للدفاع عن حريتها أيضا) عن إيمان وعقيدة في حقوق الشعوب .

وهنا يجب ان نفتح قوسا لنؤكد ان الكلونيل اسكوت لم يكن جنديا مرتزقا . كما انه لم ترد قط إشارة في مذكراته الى مرتب يتقاضاه او مكافأة تلقاها من الامير . والهدية الوحيدة التي ذكرها هي التي امر الأمير البوحميدي بأن يقدمها اليه وهي عبارة عن فرس عربي وجلود اسد . ولكن اسكوت لم يقصد الى معسكر البوحميدي وقد تنازل عن هذا الفرس . لان القوانين المغربية تمنع تصدير الخيول الى الخارج (واسكوت أبحر من تيطوان)

والموضوعات التي تقدم فيها مذكرات الكلونيل اسكوت مساهمة من وجهة نظر المؤرخ الجزائري كثيرة ومتنوعة . ونحن لا نريد أن نفوت على القارئي المتفطن ، بعرضها ، لذة اكتشافها واستغلالها ، متى كان القارئي باحثا ، لأغراض البحث ، ولكننا ، مع ذلك ، نذكر (على سبيل المثال لا على سبيل الحصر) بالموضوعات التالية :

— ان الكلونيل اسكوت هو الكاتب الوحيد الذي يقدم لنا معلومات مباشرة عن صناعة الأسلحة التي استحدثها الأمير عبد القادر . وعن المصنع المهم (في تكدمت) الذي كان ينتج مدافع تزن قذائفها أربعة أرطال تحت إدارة خبير اسباني . اسمه « دون خوسي » ، وعن مصنع البنادق الذي كان معدل انتاجه اليومي 8 بنادق في المرحلة الأولى .

— إن وصفه لتدمير تكدمت لدى غزو الفرنسيين لها . من داخل المدينة حينما شرع العرب في اشعال النار فيها ، ومن خارجها ، وهو يشاهد عاصمة الصحراء تتحول الى انقاض ورماد . وصف يتسم بالقوة والدقة الفتوغرافية ، وقد صيغ في أسلوب يسمو به المؤلف عن مستوى احداث الساعة ليستخلص العبرة من المأساة ويضع إصبعه على جرثومة الداء : جشع ملك فرنسا وطموح أبنائه لكسب النياشين باراقة الدماء ونشر الخراب.

— وكذلك يتسم وصفه للجماعات اليهودية التي اضطر باعتباره مسيحيا — الى الإقامة بينها في المغرب بالجد والأصالة . ومبلغ علمي أن أحدا من الكتاب الذين درسوا المجتمع اليهودي الذي كان يعيش على هامش المجتمع المغربي حتى ذلك الوقت ، لم يستغل معلومات اسكوت . كما أنه لم يشر أحد منهم الى أنه أطلع على هذا الكتاب .

— ان اهتمام اسكوت بالناحية الاقتصادية في مملكة الامير عبد القادر دفعه الى تسجيل ملاحظات قيمة عن موارد الثروة الطبيعية في البلد . وقد شملت هذه الملاحظات : البحث عن المعادن (نهرمينة وجبال مليانة) وتحسين انتاج أنواع من الصوف ، وتهجين سلالات من الحيوانات (الماعز الكشميري) التي يلائمها مناخ الجزائر . وكذلك تعتبر المعلومات التي يقدمها الينا الكلونيل اسكوت عن نظام الاستراد والتصدير (ولاسيما تصدير الخيول واستيراد مواد الصباغة) والتعرفة الجمركية المفروضة على الواردات ، ومستوى أسعار بعض الحاجيات في المغرب ، وطرق القوافل (ولاسيما الطريق المؤدية من تمبكتو الى فاس ، مستودع التجارة البريطانية ، والى تلمسان ، في عهد السلطان عبد الرحمن ، معلومات ذات قيمة خاصة ولا يستغني عنها باحث في التاريخ الاقتصادي للمملكتين في ذلك العهد .

— والمهمة التي كلف بها الجنرال بيجو « نيقولا مانوتشي » (شقيق معتمد الامير في جبل طارق) لاقامة اتصالات مع الأمير لحمله على الدخول في مفاوضات معه (راجع : الملحق 2) ، لانجد تفاصيلها الا في مذكرات اسكوت .

— ومذكرات اسكوت هي المصدر الوحيد الذي نملكه عن الدور الذي لعبه السينيور « مانوتشي » في اتصالات الأمير مع الخارج عن طريق جبل طارق ، وعن المكانة التي يتمتع بها ابن قنصل ايطاليا في بنزرت عند الأمير ، وَلَدَى السلطات المغربية .

تلك وغيرها حقائق ومعلومات يزيد من قيمتها ، كما أشرنا ، أن الكاتب عني بتسجيلها في اللحظة والتوّ ، سواء أكانت تتصل بمعركة حربية أوزيارة مهمة أومقابلة أوغزوة قام بها الأمير على القبائل العاصية أو شنها الفرنسيون على العرب ، وذلك دون أن يترك الفرصة للزمن ليعبث بالذاكرة ويغيرأسماء الأشخاص والأماكن أويحرفها .

وفي مقابل ذلك ، نلاحظ أن نطاق اتصالات الكلونيل اسكوت أثناء اقامته في تكدمت وفي الزمالة كان ضيقا ، وإذا حكمنا عليه بالاسماء التي وردت في مذكراته ، فهو ضيق جداً ولربما كان كذلك يرجع الى الوضع الذي يفرضه عليه عمله حيث كان مكلفا بمعالجة أمور دقيقة . ولكنه من الممكن أيضا أن يكون اسكوت قد اقتصر على ذكر الأسماء التي لها أهمية خاصة واقتضى السياق ذكرها .

ومن جهة أخرى ، فلوكان اسكوت يعرف شيئا من العربية لقدم لنا ، بدون شك ، مادة اغزر عن المجتمع العربي الذي عاش في احضانه سنة كاملة . ولكان وصفه للعادات والتقاليد والاكل واللباس اكثر طلاوة وطرافة .

ولكن هذه العيوب ، يسترها حسن نية اسكوت واحترامه للعُرْف والأخلاق ، واخلاصه القائم على اساس من الفهم والوعي وحبه للشعب الجزائري الذي يناضل من أجل قضيته ولشخص الامير الذي تنبأ بأن يمتد سلطانه على الجزائركلها ، بل وعبر الصحراء الكبرى ايضا . والذي وضعه في مقدمة زعماء العالم المعاصرين ، من طراز محمد علي ونابليون الأول .

بقي لي الآن أن أقول كلمة عن الترجمة والهوامش . فهذه الترجمة يمكن ان تعتبر دقيقة الى اقصى حدّ ، حيث أنني تابعت النص وبذلت أقصى الجهد لكي أنقل المعنى كاملا دون التضحية بظل من ظلاله . وقد سهّل علي المؤلف هذه المهمة بأسلوبه القوي والسلس في نفس الوقت وبعدم اصطناع التكلف والمحسنات اللفظية . والحق أن لغة اسكوت لغة رفيعة واسلوبه من السهل الممتنع . والانجليزية التي كتب بها الكتاب انجليزية حديثة خالية من الغريب والألفاظ الميتة .

وفيما يتعلق بالهوامش ، فقد رايت الا أثقلها بالمراجع . آخذا بعين الاعتبار ان الكتاب على كل حال يعكس انطباعات سائح ، وهي انطباعات شخصية بالضرورة . وقد اقتصرت هذه الهوامش (فيما عدا بعض التصحيحات والتوضيحات التي يتطلبها المتن) على التعريف باسماء الأعلام والأماكن وتجنبت ، بقدر الامكان ، عقد مقارنات ، كانت ستخرج عن نطاق الغاية التي رسمتها لاخراج هذا الكتاب ، بين رواية أسكوت لبعض الحوادث ورواية غيره من المؤرخين الفرنسيين . ومثل هذه المقارنات والمقابلات ، تدخل في نطاق مهمة المؤرخ والباحث ، وليست مهمة المترجم .

الجزائر 6 اغسطس 1975 م

اسماعيل العربي

مقدمة المؤلف

كنت أثناء عقد معاهدة «فيجرة» (Vegara) أعمل ضابطا في جيش المشاة الثامن الاسباني . وتطبيقا لمواد هذه المعاهدة ، أدمج الضباط الكارليون في جيش «إيزابلا الثانية» . وقد أصبح من المستحيل عندئذ بالنسبة لكل ضابط يعمل بدافع من المبادئي ، البقاء تحت قيادة أولئك الذين ساندوا قضية الاستبداد وكانوا في كثير من الحالات أداة وحشية لقتل أصدقائنا وزملائنا في السلاح (1) .

---

(1) كان الملكيون المتطرفون يرون أن ما كان يقوم به الملك فرديناند من التنكيل بالأحرار غير كاف فقاموا بمحاولة لقلب نظام الحكم في سنة 1827 ، ولكنها قضى عليها بالسلاح . على أن الحزب ظل مع ذلك متمسكا بالأمل في أن يتمكن يوماً مّا من حمل زعيمه «الدون كارلوس» ، الى سدة الحكم ، بعد وفاة الملك «فرديناند» الذى لم يخلف ذرية على الرغم من زواجه ثلاث مرات . ولما وضعت الملكة «كريستين» ، آخر زوجاته ، بنتا في سنة 1830 ، قرر مجلس الحكم الأعلى (الكورتيس) إعادة الاعتبار الى القانون الذي صدر في سنة 1789 والذي يعترف للأنثى بالحق في وراثة العرش (وهو قانون يعارضه الملكيون المتطرفون بقانون آخر أحدث يحصر وراثة العرش في الذكور) . ولما مات «فرديناند» ، أعلنت ابنته اليزابيت (1833 — 1868) ملكة على اسبانيا . وإثر ذلك ، سارع حزب الملكيين المتطرفين الى حمل السلاح بقيادة «الدون كارلوس» الذي لقب نفسه «شارل الخامس» وقد أيده في ادعاءاته ، خصوصا ، ملك فرنسا وملك نابولي وملك البرتغال الذي كان في حالة مشابهة . وكذلك دفع «الدون كارلوس» الذي تؤيده الكنيسة باسبانيا في حرب أهلية وقاد الثورة ضد الملكة الوالدة كريستينا . وقد استمرت هذه الحرب التي شارك فيها الكلونيل اسكوت في صف الشرعيين من سنة 1833 حتى سنة 1839 وانتهت بفضل تحوّل الجنرال «موراطو» الذي كان من أنصار كارلوس ولقي معاملة سيئة منه ، على رأس جيشه الى صف الملكة كريستينا ، وقد وقع معاهدة فيجرة في 31 أغسطس ، 1839 .

ونتيجة لجراح أصبت بها ، قرر المجلس الطبي أنني غير صالح للخدمة في جيش المشاة . ولو ان القوانين الحربية الاسبانية تسمح لي بالالتحاق بسلاح الخيالة . ومع ذلك ، فقد رفضت الانضمام الى هذا السلاح ، وذلك لأن هذا معناه أنني سأكون تحت قيادة كبار الضباط الأعداء

ولهذه الاعتبارات ، فقد انسحبت من الجيش ، وكلي عزم وتصميم على السفر الى تكدمت للالتحاق بالأمير عبد القادر الذي أوحت إلي مقاومته المجيدة لقوات الفرنسيين الموحدة . بشعور عميق من الاعجاب ، مع أنني في ذلك الوقت لم أكن أنظر اليه الا من زاوية كونه زعيما ورئيسا عربيا .

وتطبيقا لهذا العزم ، قصدت الى مدريد . ومن هناك اتجهت الى جبل طارق . حينما وقع انقلاب (٭) سبتمبر ، 1840 .

وفي ذلك الحين . كنت قد وصلت الى (بنمهى) في الأندلس . ولكنني بعدما ناضلت طيلة هذه المدة من أجل الحرية ، ظهر لي أن هذا ليس هو الوقت للتخلي عن العلم الذي دافعت عنه .

وتبعا لذلك ، فقد ساعدت الجنرال دون خوسي بوفيانو والجنرال منديز فيجو بكل ما اوتيت من مقدرة ولم اتركهما حتى أعلن الوصيّ الحالي على عرش اسبانيا وتم الاعتراف بحركة مدريد الانقلابية .

واصلت سفري حتى الجزيرة الخضراء (1) حيث تعرفت بالسيد مانوتشي (2) الذي كان في ذلك الوقت قائما باعمال صاحب السموّ الامير عبد القادر وقبلت المنصب الذي عرضه علي لأعمل رئيسا لأركان حرب الأمير.

(٭) في الاصل بالاسبانية Pronunciamento

(1) مدينة في اسبانيا (Algésiras) تقع على ضفة مضيق جبل طارق وتقابلها على عدوة المغرب سبتة . استولى عليها العرب في سنة 710 م. وأخذها الفونس 11 صاحب قشتالة . وقد اشتهرت في عصرنا خصوصا بالمؤتمر الذي عقدته فيها الدول الأروبية بشأن المغرب في سنة 1906 .

(2) ابن قنصل ايطاليا في بنزرت . والكلونيل اسكوت هو المصدر الوحيد للمعلومات التي نملكها عن مانوتشي الذي قام ، كما سنرى ، بدور كبير في تنظيم الاتصالات مع السلطات الانجليزية في جبل طارق وخصوصا ، مع التجار الذين يمدون الأمير بمختلف السلع العسكرية بما في ذلك الأسلحة والذخيرة .

وعندما وصلت الى بلاط صاحب السمو الملكي ، زاد اعجابي بالأمير ووافقت على اقتراحه بانني سأقوم بمهمة أكبر في خدمته إذا ابقيت في الزمالة كي أعمل لأقدم الى العالم أجمع صورة دقيقة لدولته وللاحوال السائدة في مملكته . فقد رأى أن هذا العمل أفضل من المساهمة بجنبه في المعارك الحربية ، ولاسيما ، وأنني كنت أعمل بطريقة علانية ضد الفرنسيين . ثم انني ، من جهة أخرى ، لو شاركت في المعارك ، لوقعت تحت عقوبة القانون البريطاني الذي يحرم على الرعايا البريطانيين الانضمام الى جيش الأمير.

ولكنني في مناسبة معيّنة ، تخليت عن الاحتياط والحذر — كما سنرى — عندما عرضت على الأمير أن أقوم بهجوم على معسكر لاسترجاعها من يد الفرنسيين ، حيث كنت أعتقد أن استعادة العاصمة أمر ذو أهمية قصوى بالنسبة الى الأمير.

وعندما أنزل الفرنسيون قوات عسكرية في زي تركي في مستغانم في شهر اكتوبر الماضي ، وصرحوا في بيان أصدروه بانهم قرروا التخلي عن الجزائر ، فيما عدا مدينة الجزائر ووهران ، لحكومة تركية وأن الحلفاء قد عينوا ابن الباي السابق في عرش اجداده ، نصحت سمو الامير بان يعرض قضيّة الجزائر على الحلفاء .

على أن هذا البيان وما انطوى عليه من المغالطة ، لم يكن سوى خدعة حربية لذر الرماد في عيون العرب لحملهم على التخلي عن المقاومة والخضوع لسيادة فرنسا .

فلو طبق الفرنسيون معاهدة تافنا باخلاص — تلك المعاهدة التي عقدت بين الأمير وبين الوالي العام الحالي — لبقيت مدينة الجزائر في أيديهم ، بل وجميع الأراضي التي تنازل لهم عنها الأمير ، أيضا . وإذا لأمكنهم احتكار التجارة الخارجية مع مملكة الأمير ، بل وأيضا ، التجارة مع تمبكتو وجزءا كبيرا من التجارة مع المغرب الأقصى .

كلا ! فإن الفرنسيين فضلوا خرق المعاهدة ، فقضوا بذلك على الثقة التي وضعها فيهم بطل — بطل لايعرفه سوى سيفه ، وهو الآن لايستطيع ، ولا يريد أن يثق في كلمتهم مرة أخرى

وفيما يتعلق بانجلترا — بلدي — فيجب أن أقول إن الحكومة التي تسير دفة شؤون الأمة البريطانية في الوقت الحاضر ، قد دلت على قصور في حكمها على الأشياء ، حيث أنها لم تلح على فرنسا بتنفيذ الضمانات التي قدمتها عندما استولت على مدينة الجزائر ، بحيث تضع القرار النهائي بشأن مصير هذا البلد في يد الحلفاء وفي مؤتمر يعقد لهذه الغاية .

إن الحكومة البريطانية لم تصنع شيئا في هذا السياق . وذلك على الرغم من ان صاحب السمو الملكي يصر الآن على عقد مثل هذا المؤتمر . بل ويبدي استعداده لوضع قضية بلده العادلة أمام محكمة دولية من هذا النوع .

لقد وقع ولا يزال يقع عدوان وحشي مناف لجميع الاعتبارات الانسانية ولا يوجد ما يبرره على الجزائر . وهذه الحرب لا يمكن للامة الفرنسية أن تتوقع منها أية فائدة في نهاية الأمر . ولكن هذه الحرب تخرب التجارة البريطانية وتقضي على مصالحها الحيوية في هذا الجزء من العالم . فان متوسط قيمة الصادرات البريطانية الى الجزائر وقيمة وارداتها من هذا البلد . تبلغ نحو سبعة ملايين جنيه استرليني (وهذا يشمل المناطق التي تحتلها فرنسا ومملكة الأمير)

وهدفي الوحيد من كتابة هذه المذكرات ، هو أن أبرّيء شخصية الأمير عبد القادر من الشكوك والشبهات التي تقذفه بها الصحافة الفرنسية ، بحيث يراه العالم الخارجي بشخصيته الحقيقية ـ شخصية بطل شاب ذي عقل مستنير وقلب نبيل . إنه بطل غير قادر على الخيانة . وسياسة حكومته المتحررة خليقة . لو أتيح له التربع على عرش الجزائر كلها . بان يجعل من هذا البلد في وقت قصير أكثر بلدان العالم الاسلامي تقدما وازدهارا .

إن الامير يعتبر الأمة البريطانية صديقة للشجعان والأحرار . ولكن حكومتنا لا تستطيع مساعدته في نضاله المجيد من أجل حرية بلده واستقلاله . ولو أن الأفراد من البريطانيين يستطيعون ذلك .

إن قضية الأمير عبد القادر اجدر بمساعدتهم وأحق بعواطفهم الانسانية . من قضية اليونان . ولاسيما وأن الجزائر ذات أهمية قصوى للمصالح التجارية البريطانية .

وبقدر ما تسمح به قوانين بلادي ، فان خدماتي ستكون دائما تحت تصرف سموّ الأمير عبد القادر . ولكنني مع ذلك ، لم أجرد حتى الآن سيفي من غمده للقتال من أجل قضيته ، وأنا لا أنوي أن أصنع ذلك إلا إذا بلغ دمي « درجة الغليان » (٥) . وعندئذ ، سأقاتل من أجل الأمير ، حتى ولو كان ذلك ضد قوانين بلدي .

---

(٥) العلامة في الأصل .

إنني أمجد اسم بريطانيا وأعتز بالانتماء الى هذه الأمة ، ولذلك فسأكون آسفا لأن أخاطر بامتيازات المواطن البريطاني ، حتى ولوكان ذلك من أجل قضية صديق قريب الى قلبي عزيزعلي .

لم يحدث شئ ذوبال . منذ أن غادرت صاحب السموالملكي . فيما عدا احتلال الفرنسيين لتلمسان . وهذه العملية كان الأمير يتوقعها . ولكي يحافظ سموه على خطوط مواصلاته مع المغرب الاقصى . انسحب مؤقتا عن طريق الصحراء الى الأراضي التي تنازل له عليها سلطان المغرب الأقصى . مصطحبا معه جيشه النظامي ولكنه لم يكد يستقر به المقام في هذه الأراضي . حتى اجتاز نهر تافنا وهجم على الفرنسيين في الشهر الماضي (1) وقد كانت خطته الحكيمة في هذه العملية . هي ان يترك للفرنسيين الفرصة لكي يثقلوا أنفسهم بالنهب والسلب ثم يهجم عليهم في الوقت الذي تكون فيه روح المقاومة عندهم ضعيفة وأقل فعالية .

لقد ذكرت البلاغات الرسمية الفرنسية ان خسائرهم قد بلغت 53 جنديا وثلاثة ضباط قتلوا في هذه المعركة . ولكن الأخبار الواردة من سمو الأمير ، تقول ان عدد القتلى الفرنسيين بلغ ثلاثمائة . وذلك بالاضافة الى استيلائه على جميع الأسلاب والغنائم التي اخذوها .

ذلك هو الزعيم الذي ادعى الفرنسيون أن الجزائريين جميعا قد تركوه وتخلوا عنه وأنه أصبح مجرد لاجيء في المغرب الأقصى !

والصحف الفرنسية في الوقت الحاضر تعزو النية الى الحكومة الفرنسية بان تقوم بحملة بحرية لقصف طنجة والصويرة (موجادور) لكي تنتقم مما تسميه خيانة السلطان عبد الرحمن .

فهل يدرك الفرنسيون ان سلطان المغرب ملزم بحكم الروابط الدينية بحماية الامير؟

هل يدركون أنه مهما تكن الاعتذارات التي يقدمها اليهم السلطان لكي يتجنب قطع العلاقات بينه وبين فرنسا ، فهو . في نهاية الأمر . سيفضل هذه القطيعة على محاولة استعمال العنف مع الأمير عبد القادر . أو حتى توجيه اللوم اليه؟

فإن الأمير عبد القادر هو البطل الذي يدافع عن الدين الإسلامي الذي يدين به السلطان عبد الرحمن . وبالتالي ، فلوقام بأية محاولة من هذا القبيل ، لوجد الشعب المغربي يقف ضده ، وفي جانب الأمير عبد القادر .

---

(1) وقعت المعركة التي يشير اليها اسكوت بين الأمير عبد القادر الذي كان على رأس الجيش النظامي وتسانده قوات من بني سناسن والجنرال بيد وعند الحنايا في 20 مارس 1842 ، وقد تكبد العد وفيها خسائر معتبرة .

وستكون النتيجة حينئذ — على الأرجح — تحويل الصولجان الى يد رجل عسكري هو اقدر على حمله.

إنني أختتم هذه المقدمة بنصيحتي الى الفرنسيين — الذين أقدر الجنود الشجعان منهم — بان ينسحبوا من ميادين افريقية، حيث أنه لا يوجد مجد يجنونه في هذه المعارك ولا توجد اية فرصة لأي واحد منهم لأن تقام له تماثيل لتخلد ذكراه للأجيال القادمة في هذا البلد. وبدلا من هذه التماثيل، فان المرجح أن تشاهد الأجيال في وقت من الأوقات، برجا تذكريا مثل هرم «جرجي» (*) القائم في تونس، وهومبني بالجماجم.

لندن أبريل، 1842.

(*) يوجد برج تذكاري في تونس بني بجماجم الاسبان الذين سقطوا في المعارك ضد شارل الخامس (تعليق المؤلف).

الفصل الأول

غادرت جبل طارق في 25 فبراير 1841 على متن الباخرة المسماة «الأسرة المقدسة» ووصلت الى تيطوان صباح يوم 26 من نفس الشهر . وأما صديقي السيد «مانوتشي»، فقد سبقني الى تيطوان ببضعة أيام .

وموقع مدينة تيطوان (1) موقع جميل حيث أنها تمتد على هضبة على مسافة حوالي ميلين من الشاطيء ، وأما عدد سكانها فيمكن تقديره بنحو 15 ألف نسمة ، حوالي أربعة آلاف منهم من اليهود . والمدينة — مثل معظم المدن الافريقية — تتكون من منازل ذات دور واحد ، ولو أنه توجد فيها منازل من دورين . على أن جميع المنازل مسطحة السقوف . وشوارع المدينة ضيقة حيث لايتجاوز عرض الشارع منها ست أقدام . وهي قذرة جدا . ومنازل اليهود بنيت على الطراز المعماري الشرقي وتتسم بالرشاقة . وأما الأحياء التي يسكنها المسلمون من المدينة . فإني قد حرمت من رؤية منازلها من الداخل ، حيث أنني مسيحيّ .

واليهود في تيطوان مثلما هم في جميع المدن التي تسود فيها الديانة الاسلامية — يعيشون في حي خاص بهم ويعاملهم المسلمون على أساس أنهم أقل شأنا . ولكن المسلمين

(1) تيصوان (او تيطاوين) مدينة مغربية تقع على مسافة 34 كيلومتر في الجنوب الشرقي من سبتة ، على مرتفع من الأرض وتشرف على نهر مرتين (أومرتيل) الذي يصب في البحر على مسافة سبعة أميال من المدينة .

يسمحون لهم بالعيش في بلدهم كما يحثهم القرآن الذي يمنحهم الحماية باعتبارهم من الذميين الذين يخضعون للحكام المسلمين . وهم يتوهمون أن عاداتهم السلمية لن تعرض الامبراطورية العثمانية للخطر . على أن أعمال المسيحيين العسكرية في افريقية قد تسببت في اخراج كثير منهم من البلدان الافريقية ، ولو أن ذلك لم يحل دون احترام المسلمين للمسيحيين . والمسيحيون الذين يعتنقون الاسلام ، يسمح لهم بلباس العمامة الخضراء ويعاملون معاملة الأشراف.

والتجار اليهود في المغرب الأقصى ، مثلما هي الحال في الجزيرة العربية ، هم الذين يمارسون النشاط التجاري الأساسي . ولكنهم كثيرا ما يجبرون على تحويل ثرواتهم الى الحكام ، بسبب ارتفاع الضرائب والجزية المفروضة عليهم . ومتى عرف عن يهودي أنه جمع ثروة طائلة تسعى السلطات المحلية بجميع الوسائل ، وبمختلف الأعذار للاستيلاء عليها.

وبين النساء اليهوديات يوجد كثير من الفتيات الجميلات ، ولكن الشيء الذي استلفت نظري أكثر من كل شيء آخر في هذه النساء هو ما يحملنه من الذهب والثياب المزركشة التي يرتدينها والحزم المنسوجة بخيوط الذهب أو بخيوط الفضة ، حسب مركز صاحبة الحزام الاجتماعي . وفي هذا السياق ، يجب ألا أنسى قرط اليهوديات . فقد رأيت فتاة ، وهي ابنة يهودي يعمل نائبا لقنصل فرنسا ، ترتدي قرطين يتدليان من أذنيها في شكل كمثري ، وكان القرطان من الثقل بحيث أنها اضطرت الى تعليقهما بخيط من الذهب الى عصابة الذهب التي تزين شعر رأسها والتي كانت محلاة بالجواهر !

والقرط ، من الحلي الفاخرة التي تعتز اليهوديات بتزيين انفسهن بها ، مثلما يفتخرن بامتلاك الأحجار الكريمة . وهذه المجوهرات الشرقية التي تزين رؤوس اليهوديات كثيرا ما تبلغ قيمتها عدة آلاف من الدولارات . واما الجوارب ، فانه لا يروق لباسها الا لقليل من اليهوديات ، حيث أنهن يفضلن عليها الخلخال المصنوع من الفضة والذي يزيد في جمال الرجل التي تلبس «البلغة» المغربية الحمراء اللون.

بقينا في تيطوان حتى الخامس من شهر مارس حينما أتممنا تجهيز أنفسنا للسفر الى الجزائر ، أو بعبارة أدق ، الى تكدمت ، عاصمة مملكة الأمير عبد القادر . وقد كانت جماعتنا تتكون من السيد مانوتشي ، وسيد شاب يسمى دومينجو بيكاردو ، من سكان جبل طارق ويعمل كاتبا للسيد مانوتشي ، وشابة اسبانية تدعى مدلينا وأختها التي تبلغ حوالي ثماني سنوات من العمر . فأمامدلينا ، فقد كانت ذات حظ متوسط من الجمال، ولكنها لم تكن تتمتع بحظ من الرشاقة والذكاء . وقد ارتبط بها السيد مانوتشي لكي ترافق زوجته التي كانت حريصة على أن تحتفظ بجنبها برفيقة أوربية أثناء اقامتها في زمالة الأمير عبد القادر . وأما خدمنا، فهما شاب اسباني يدعى رفائلو، وشاب برازيلي يسمى كانديدو (أي الطيب) والواقع أن صراحة طبع الأخير وانفتاح نفسه ، خصائص جعلت الاسم ينطبق على المسمى . وبالاضافة الى هؤلاء كان يرافقنا اثنان من الجزائريين يتجهان الى تلمسان ، أحدهما يسمى محمد والآخر موسى ويهودي يدعى حاجون من تيطوان . وقد كان على رأس قافلتنا التي تتكون من 18 بغلا وفرسا وثمانية عشر رجلا ، بغال محترف.

وهذا الخليط من المسافرين من العرب والمسيحيين واليهود ينطوي على كثير من الغرابة . فقد كانت الانجليزية والفرنسية والعربية والاسبانية هي اللغات التي نستعملها على التوالي أو في وقت واحد للحديث ، وهو شيءٌ يذكرني ببرج بابل !

على أنه يجب ألاّ أنسى ذكر ضابط في جيش السلطان يسمّى عبد الكريم ، كان يرافقنا لتأمين سلامتنا . وَوَصْف هذا الضابط قد يسلّي أولئك الذين لم يُتَحْ لهم قط أن يشاهدوا ضابطاً في جيش السلطان يرتدي زيّه الرسمي . وهذا الشخص يبلغ طوله نحو خمس أقدام وبوصتين ، وعمره نحو الخمسين ، وأسنانه في حالة يرثى لها . وأما وجهه فيحمل علامات الشمس وأخاديد السنين التي جعلت ظهره متقوسا . وأما لباسه فيتكون ـ ابتداء من تحت الى فوق ـ من زَوْج من الصندل أصفر اللون وسراويل واسعة لا تغطي ساقيه حيث تقف عند الركبة ، وقميص أبيض من القطن . القميص والسراويل ربطا بحزام أحمر . وفوق القطعتين حائك ، منسوج من الصوف

يلف جسم الرجل ويهبط على الكتف اليمنى ويغطي رأسه الجزء الأعلى من « قشابية مصنوعة من الجوخ الانجليزي الرفيع ، وقلنسوة (طربوش) يرتديها جميع جنود السلطان . وأما سلاح صديقنا الضابط فقد كان ينحصر في سيف يحيط به غمد من الجلد أصبح يعلوه الصدأ لعدم استعماله . وقد علقه حول رقبته بحبل مفتول ، وذلك بالاضافة الى بندقية تركية طويلة ذات ماسورة واحدة وذات عقب مرصَّع . وهذه البندقية كان يحملها بكثير من الاعتزاز في كيس من القماش أزرق اللـون .

وعندما وصلنا الى باب مدينة تيطوان ، لَبِسْنَا جميعا « برانس » وطرابش ، وذلك حتى نتجنَّب التعرض لاهانة بعض السكان ، الذين يرون في دخول مسيحيّ إلى داخل البلد شيئاً جديداً ومثيراً ، حيث أنه لم يكن من المسموح للمسيحيين بالمرور في هذه البلاد منذ عدة قرون ، وذلك فيما عدا الذين يعتنقون الاسلام . والواقع أنه لم يكن في وسعي ، أنا أيضاً ، المرور بهذه الأرض ، لولا الحماية التي بَسَطَتْهَا حكومةُ السلطان على السيد مانوتشي ، سفير صاحب السموّ الملكي ، الأمير عبد القادر . وهذه الظروف وفَّرتْ لنا كذلك استقبالاً طيباً من جميع المسلمين الحقيقيين ، حيث كان الجميع يعترفون للأمير بأنه حامي الاسلام وبطل الجهاد المقدّس في الحرب ضدّ الكفــار .

ولمـا غادرنا تيطوان ، خرج لتوديعنا عدد كبير من السكان . وقبل أن نخطوَ الخطوات الأولى ، تقدَّم الينا شيخ عجوز ورفع يديه الى السماء يدعو الله أن يسهل سفرنا ويجعله ميموناً بحيث نلتحق بسلام بحامي الإسلام . وبعد الظهر وصلنا الى قرية تدعى « همسل » تبعد بنحو فرسخ من تيطوان ، حيث توقفنا لقضاء الليل . ولدى وصولنا ، تقدم الينا رئيس القبيلة للترحيب بنا . إنه شيخ ذو مظهر وقور وعلى رأسه عمامة خضراء ، مما يدل على أنه من الأشراف ، وقد دخل في محادثات ، وقتا ما ، مع السيد مانوتشي الذي يتحدث اللغة العربية بطلاقة ، ثم ودّعنا مؤكداً لنا احترامه وصداقتــه .

وبعد طعام العشاء مباشرة ، ظهر الشيخ أمامنا من جديد حاملا معه طبقا كبيرا من الكسكس مغطى باللحم المغلي والدجاج ونوع من الخبز يشبه الفطير المحلي . وإثر ذلك مدّ السيد مانوتشي يده الى الطبق ، على الطريقة العربية ، واقتطع لنفسه جناحا من دجاجة . ونظرا لأن أسفاري في البحار الجنوبية قد علّمتني هذه الطريقة في الأكل ، فاني لم أتردّد في اقتفاء أثره ، فمددت يدي بدوري الى الدجاجة واقتطعت لنفسي فخذها ، ثم أخذت الخبزة فكسرتها بين يدي ، وشرعت في تناول عشائي الثاني ، الأمر الذي أثلج صدر صديقنا شيخ القبيلة العربية .

وأما مدلينا ودومنيجو اللذان لم يخرجا من بلدهما فأنهما كانا يتابعان هذا المنظر بكثير من الدهشة والاستغراب . ولكنهما تقبلا الأمور قبولا حسنا حينما أقنعناهما بقيمة المثل القائل «متى كنت في روما ، تصرف كما يتصرف الرومان» .

وفي هذه الأثناء أراق دومينيجو شيئا من «الروم» من زجاجة بينما كان يحاول فتحها على السجاد الذي جالسين عليه . وهذه الغلطة أغضبت صديقي مانوتشي الذي كان يخشى ردود فعل من الشيخ العربي . ولما سألته ما هو الضرر من سقوط بضع قطرات من الخمر على السجاد ، أجابني قائلا : إن هذه القطرات لو سقطت على ثوب الشيخ العربي لنزعه ولما ارتداه مرة أخرى إلا بعد غسله ، كما تقضي بذلك التقاليد الاسلامية . ولكنني أجبته بأنه إذا كان اراقة الخمر على الثياب يعتبر جرما كبيرا ، فان بعض العرب لا يتورعون عن تناول بعض القطرات . وبهذه المناسبة ، تذكرت أن السيد مانوتشي قد اصطحب معه يهوديا أعتنق الاسلام وسمى نفسه محمدا ولكنه كان يميل الى الخمر الوردي ميلا شديدا ...

وقد غادرنا قرية «همسال» في الصباح المبكر يوم 6 مارس ثم سرنا في طريقنا حتى تجاوزنا بعض الآثار الرومانية ، وقضينا الليل في وادي مجاور لها . والشيْ الوحيد الذي يستحق التسجيل في مسيرتنا في ذلك النهار ، هو مرورنا بمكان يسمى زمر الأسرى ، تقول الاسطورة أن أم محمد (ص) مدفونة فيه . وقد يتصور الانسان أن هذا القبر الذي

يأوي عظام والدة أكبر مشرع في العالم . النبي الذي يدين بدينه ربع البشرية مبني بالمرمر ، كلا ! إنه عبارة عن قبر محاط باشجار الصنوبر وبحائط مبني بالحجر لا يزيد ارتفاعه عن 4 أقدام . وهذا القبر يقدسه السكان وينظرون اليه بعين الاجلال بحيث أن اليهود عندما يمرون بهذه الطريق الى فاس يضطرون الى الخروج منها وإلى سلوك طريق فرعية تدور من بعيد بالقبر حتى لا تدنس حرمته أقدامهم .

وفي يوم 7 صباحا غادرنا الوادي لنخيِّم في مكان يدعى «بني جافيت» . وفي الطريق أثار فضولي موقف البَغَّال المتعصّب منًّا حيث كان يرى أن من الخطيئة أن يمس أحدا منا . ولكن العربيين المتجهين الى تلمسان لم يترددا في مساعدتنا لامتطاء خيولنا .

والطريقة المريحة للسفر في هذه المنطقة والتي يسير عليها المسافرون مع القوافل هي وضع صندوقين ملفوفين أو كيسين على جانبي ظهر البغل أو الحصان أو فراشا أو سجادا على ظهره بحيث يصبح ظهر الحيوان مريحا للجلوس أو الركوب عليه .

وفي غضون هذه الرحلة ، كثيرا ما يحدث أن أنزل من على ظهر جوادي ، مثل السيد مانوتشي ، ونركب البغل المزود بهذه الوسيلة من الراحة . وفي احدى المناسبات رفض الشخص الذي يرافق فرسي أن يساعدني لامتطاء ظهر البغل الذي يحمل الأمتعة ، ولكنني أعدته الى صوابه في مرحلة تالية من نفس النهار . فقد ارتكب غلطة أخرى في حقي استحق من أجلها ضربة على كتفه بعقب بندقيتي . وإثر ذلك ، رفع دليلي عصاه ليسدد ضربة اليّ . ولكنه فوجئْ عندما فتحت زناد بندقيتي وسدّدت فوهتها في اتجاهه . على أن السيد مانوتشي الذي كان في مؤخرة القافلة قد لحق بنا عند هذه النقطة فوجه كلمات توبيخ بالعربية الى الدليل الذي هدأت أعصابه واتخذ مني موقفا أقل عداء بعد ذلك . وقد تلت ذلك مناقشة طويلة ، أحسست إثرها بتغير معاملة المرافقين الذين أصبحوا أكثر احتراما لي ، ذلك على الأقل في الظاهر . وأما في الباطن ، فاني لا أشك في أنهم يلعنون هذا المسيحي الذي يرافقهم .

وفي المساء ، وصلنا الى مكان انتشرت فيه عدة أكواخ يقع على مسافة نحو فرسخ من مدينة القصر وهناك قضينا الليل . ولما أصبح الصباح في يوم 8 ، مررنا بمدينة القصر (1) واجتزنا مقبرة المسلمين ، وهي تقع خارج أسوار المدينة مباشرة . وهذا الحدث كان مثارا لدهشة اليهود الذين كانوا يرافقوننا حيث كانوا مضطرين هم ، لسلوك طريق ملتوية لتجنب مقبرة المسلمين - وهو الشأن في الحقيقة ، عند المرور بأي قبر ولي أو رجل صالح . إن اليهود غير مسموح لهم هنا حتى بالدخول بنعالهم الى المدينة . وأما دخول المسحيين الى الأحياء الإسلامية من المدينة فهو غير مسموح به البتة .

وقد اجتزنا نهر القصر الذي يمر في الجنوب الشرقي للمدينة ، وغير بعيد منها ، وينصب في البحر عند مدينة العريش .

والمدينة الأخيرة تقع على مسافة ستين ميلا من طنجة ، على شواطئ المغرب الغربية. ولما وصلنا الى مجموعة من الأكواخ تقع على مسافة ميل من المدينة ، نزلنا بها وبعثنا بمن يشتري لنا ما نحتاج اليه من الزاد من العريش . وهذه الأكواخ تحمل اسما فضفاضا وهو : مولاي اسماعيل . ولما استفهمنا عرفنا أن هذه التسمية ترجع الى أن مولاي اسماعيل (2) كان يضرب خيمته في هذا المكان بين الحين والحين ، أثناء سفره من فاس الى تيطوان ، أو طنجة . واذا اعتبرنا المساحة التي تمتد عليها مدينة القصر ، فان من الممكن تقدير عدد سكانها بنحو 5000 آلاف نسمة (ما يتراوح بين 400 و 500

---

(1) وتسمى أيضا قصر عبد الكريم . مدينة قديمة بالريف تبعد عن المحيط الأطلسي بنحو 36 كيلومتر وقد اشتهرت في التاريخ بخصب مزارعها وأسواقها العامرة وبصناعاتها .

(2) هو اسماعيل بن محمد الشريف بن علي الشريف العلوي (1645 — 1727 م) المظفر بالله أمير المؤمنين . من كبار ملوك الاسلام ، دامت له الخلافة والسلطان 57 سنة . دوخ بلاد المغرب كلها ، سهلها ووعرها حتى بلغ تخوم السودان . اشتهر بولوعه ببناء القصور والقلاع وبلغ ما بناه 76 قلعة . مات بمكناس وأعقب نسلا وافرا .

منهم من الاسرائيليين) وقد دفن في القصر ولي مشهور في جميع أنحاء المغرب يسمى سيدي البغالي.

وبعد ما تركنا آثاراً رومانية على شمالنا ، وصلنا الى قرية مغربية تسمى «شمهة» في اليوم العاشر من الشهر. وقد أخبرنا الدليل أن سكان هذه القرية يبلغ عددهم 2000 نسمة . ولكننا إذا نظرنا اليها من خلال آثارها ، فإن من الممكن الاستنتاج بأنها كانت مدينة عظيمة في الماضي.

وفي الحادي عشر ، وصلنا الى قرية «غرداد» التي تتكون من نحو مائة خيمة للعرب . وقد صادفتنا في هذه المنطقة بعض الحوادث التي تدل على مدى الخطر الذي يتعرض له المسافر في هذه الأراضي إذا لم يكن يتمتع بحماية قوية . رافقني دومينجو إلى جدول مجاور حيث أخذت حماما ، بينما كان السيد مانوتشي مستلقيا في خيمته وبجواره مادلينا ، عندما تقدم عربي من باب الخيمة ووجه الحديث الى زميله قائلا : «أنظر الى هذا المسيحي كيف يختلي بزوجته بكل برود» . ولما كان السيد مانوتشي يعرف اللغة العربية معرفة جيدة ، كما سبق أن ذكرت ، فقد نهض لدى سماع هذا الكلام وسدّد الى الرجل ضربة عند أذنه . وقد دافع العربي عن نفسه بعصى كانت في يده . ولما رأى رفائيل الضربات تسدد الى سيده ، نهض وطعن العربي بحربته وجرحه في ثلاثة مواضع في جسمه . ولولا أن بعض المتفرجين تدخلوا وأنقذوا العربي لقضى عليه لتوه . وعندئذ تدخل الضابط المغربي ووضع القيود في يد العربي وأبلغ القبيلة أنه إذا لم يطلق السيد مانوتشي سراحه ، فسيضطر هو الى السير به باعتباره سجينا الى فاس حيث ستعرض قضية على محكمة السلطان . وبعد هذا الحادث بوقت قصير تقاطر علينا أصدقاء السجين وأقاربه حاملين مختلف الهدايا (الدجاج والبيض الخ.) ويتضرعون الينا راجين تدخلنا بحيث لا يساق الى فاس معتذرين لفعلته بمختلف الأعذار ولكننا رفضنا قبول هداياهم وطلبنا إلى الضابط أن يطلق سراح السجين حيث قدرنا أنه لقي تاديبا كافيا لسوء سلوكه بعدما ضربه عبد الكريم خمسين ضربة بالسوط على قدميه وهي طريقة للتأديب شائعة في المغرب الأقصى.

وفي يوم 11 غادرنا قرية «غرداد» والتحقنا بقرية «ورْغة» التي تقع على ضفة نهر يحمل نفس الاسم . وقد وصلنا اليها عند العصر . ونهر ورغة (1) يلتقي بنهر القصر عند العريش . وهو نهر مهم ، بحيث ان مياهه كانت تمتد في الوقت الذي اجتزناه في مساحة لا تقل عن 100 ياردة في العرض . والنهر يصبح غير قابل للاجتياز في موسم الأمطار حيث يبلغ عرضه أحيانا مالا يقل عن 500 ياردة ، وهو يجري في تيار متدفق قوي .

وقرية ورغة تتكون من خيام ثابتة طول السنة في عين المكان . والجبال الرئيسية التي تشاهد في هذه المنطقة تمتد من الجنوب الى الشمال .

وفي يوم 13 وصلنا بعد الظهر الى «شرقة» ، وهي قرية صغيرة منازلها مبنية بالحجارة ومسقوفة بالقش . والقرية تقع على هضبة تجري تحتها عينان ثرتان تنبجسان من صخرة . وفي الحوض الذي يتكون من جداول العينين توجد سلاحف كثيرة . والواقع أن الانسان يشاهد كثيرا من هذه الحيوانات في الأنهار والجداول المغربية في كل مكان . وقد لاحظت وجود سلاحف كثيرة أيضا في البر ، ولكنها من النوع الصغير . ومن قشرة هذه الحيوانات تصنع صناديق (علب) أنيقة للسعوط ، وكذلك توجد طيور ابي معلقة بكثرة في المنطقة وبعض هذه الطيور أليفة بحيث أنها لاتبالي بالانسان حينما يقترب منها . والأهالي يعتبرونها حيوانات مقدسة ، وبالتالي ، فهم لا يتعرضون لها بالأذى . وقد أردت ذات مرة صيد أحد هذه الطيور ولكن الرفقاء نصحوني بالعدول عن ذلك حيث أن ذلك من شأنه أن يؤثر في نفوس العرب . وفي غضون المدة التي أقمناها في هذه القرية رأينا أن السكان يمارسون لعبة الكرة بطريقة غريبة وتختلف كثيرا عن طريقتنا .

---

(1) وصف البكري المنطقة التي يجرى فيها وادي ورغه فقال ان «وادي ورغة يجري في بلد شريف وقرارات كثيرة شبيهة بالمدن ثم قرى متصلة أكبرها قرزاوة بني حُصيْن» .

وفي يوم 15 من الشهر وصل سكرتير الحاج طالب (1) يحمل تعليمات الينا بأن نتوجه الى تازا وهناك سنتلقى كل ما نحتاج اليه من الزاد والخيول حتى نتمكن من مواصلة سفرنا إلى تلمسان . وقد اشترى الرسول لنا كميات من الزاد ، ولا سيما من « الكسكس » والتين والتمر والزبيب ، الى جانب سلة من التمر الأخضر الجيد قدمها الى مدلينا ، مما يدل على أن الجيش يلقي عناية خاصة هنا أيضا ..

وقد اضطررنا أثناء إقامتنا في هذه المنطقة الى تعيين شخصين ليسهرا على امتعتنا ، حيث أن عددا كبيرا من اللصوص يبحثون عن الضحايا بالليل ، بل بعضهم قد وجد سبيله الينا بالفعل ، ولكنهم لما عرفوا أننا على استعداد للقائهم تراجعوا وولوا أدراجهم .

وعلى الساعة السادسة صباح يوم 16 غادرنا « شراقة » وواصلنا سيرنا في هذه المنطقة ذات الهضبات والأودية المخضوضرة الجميلة . وجميع هذه الأراضي قابلة للزراعة ، ولكنها تركت مهملة ولا يستفيد منها السكان الا للرعي .

لقد أتيح لي أن أتجول كثيرا في فرنسا واسبانيا والبرتغال وأمريكا الجنوبية وأستراليا ، ولكنني لم أجد أحد هذه البلدان أغنى وأخصب تربة من الأراضي التي قطعتها بين تيطوان وفاس ؛ والشيء الوحيد الذي يدعو إلى الحزن هو أن سكانها في حالة من الاهمال لا تفوق الا قليلا حالة النيوزيلانديين .

وقد مررنا في طريقنا بعدة أنهار وجداول ، معظم مياهها مشوبة بالملوحة ، كما صادفنا عدد من القرى العربية الكبيرة التي يعيش سكانها في الخيم .

ولما وصلنا الى إحدى هذه القرى ، قابلنا وفد مهم على رأسه قائد المنطقة الذي سأل مانوتشي عما إذا كان هو سفير الأمير عبد القادر . وعندما أجابه بالايجاب ، ترجاه أن يقبل منه مبلغ أربعين دولارا مساهمة منه في تكاليف حرب التحرير الجزائرية .

(1) الوزير الاول في حكومة السلطان عبد الرحمن . راجع التفاصيل التي ذكرها الكلونيل اسكوت عن شخصية الحاج طالب أسفله .

وإثر ذلك رفع رجال الوفد أيديهم للدعاء متضرعين الى الله بأن يقهر الغزاة الفرنسيين ويرشد السلطان عبد الرحمن ، ملكهم ، ويوفقه لينضم الى الأمير عبد القادر في الدفاع عن قضيته العادلة . وكذلك أعربوا عن رغبتهم في الحصول على شرف الموت شهداء في الجهاد ضد العدو المشترك ، أو ينتصروا في الدفاع عن الدين الحنيف ، حيث أن الشهيد تنتقل روحه الى الجنة مباشرة ، في الوقت الذي يترك فيه ذكرا عاطرا بين الأحياء .

وفي طريقنا بعد ذلك مررنا بقبر ولي آخر . ولكنه ، نظرا لكثرة عدد الأولياء الذين مررنا بهم ، فقد فاتني أن أستفسر عن اسمه . وكذلك رأينا زاوية أحد المرابطين على مسافة الى يسار الطريق .

وقبور الأولياء والزوايا عادة مبنية بالحجر . وهؤلاء في معظم الحالات يختارون أماكن إقامتهم على قمم الجبال . وفي المساء ، وصلنا الى مكان يدعى «قبور العبد» (*) .

وفي صباح السابع عشر من الشهر ، رحلنا عن هذا المكان وواصلنا سيرنا في سهول واسعة مترامية الأطراف . وعند الزوال شاهدنا جماعة كبيرة من العرب ينزلون من تلول على شمال الطريق ويتجهون اليها لاجتيازها أمامنا . وبمجرد ما وقعت أعيننا عليهم ، توجسنا خيفة في أن يكونوا من جماعات قطاع الطريق التي تعيث فسادا في هذه المنطقة . فان القبائل التي تعيش بين فاس والحدود الجزائرية الواقعة من المملكة لاتخضع الا خضوعا اسميا للسلطان ، وكثيرا ما يخرج منها قطاع الطريق الذين ينهبون القوافل ويقتلون المسافرين دون أن تمتد اليهم يد العدالة .

ولدى رؤية هذه الجماعة القيت أنا والسيد مانوتشي بطريقة آلية نظرة متفحصة على أسلحتنا . وأنا لم يساورني قط أي قلق بشأن النتيجة التي سيسفر عنها اصطدامنا بهذا الحشد ، اذا قدر لنا أن نصطدم بهم . فان قافلتنا تشتمل على اثني عشر رجلا وكل واحد منهم حسن التسلح بينما لايتجاوز عدد الجماعة القادمة هذا العدد .

---

(1) الكلمة بالعربية في النص .

(1) كذا في الاصل : Cobur-El-Abd

وقد ترجاني السيد مانوتشي أن لا أهتم بأمر هذه الجماعة الا إذا بدأونا بالعدوان . وكذلك سار هو في مقدمة القافلة في حركة لا ستكشاف نياتهم نحونا .

وكم كانت دهشتنا عظيمة عندما وجدنا أنهم أصدقاء لنا وأنهم يشكلون كوكبة من خيالة السلطان عبد الرحمن يرافقون سجينا الى فاس . وكذلك توقفنا جميعا عند جدول، ونزلنا من ظهور جيادنا وجلسنا لتناول طعام الفطور مع فرسان السلطان الذين لم يكونوا يصدقون أعينهم بأنهم شاهدوا حقيقة رجلا مسيحيا في هذه الاصقاع .

ومن جهتي اندهشت كثيرا لأن أشاهد جبلا على مسافة قصيرة من ذلك المكان وسفوحه مغطاة بالثلج تماما . بينما كانت قمته رمادية اللون ولا أثر للثلج عليها . على ان هذه الدهشة قد زادت كثيرا ، حينما علمت أن ماتوهمته ثلجا لم يكن في الحقيقة سوى طبقة من الملح ! فان هذا الجبل يمثل المعدن الاساسي للمنطقة من الملح .

وكذلك مررنا بنهر كبير تجري مياهه بسرعة تشبه سرعة السيول التي تنحدر من الجبال . وهذا النهر قد انخفض مستوى مياهه الان وأصبح عرضه لا يتجاوز 12 ياردة . ومع ذلك ، فقد لقيت الجياد صعوبة كبيرة في اجتيازه . وهذا النهر ينصب في نهر ملوية أكبر الانهار التي تجري على ساحل المغرب الشرقي . على مسافة نحو ستين ميلا من مدينة مليلة (1) .

وعلى مسافة غير بعيدة من النهر ، شاهدنا فوق الهضاب أكواما من الحجارة التي تميز ، كما أخبرنا الدليل ، قبور الجنود الذين سقطوا في المعارك ضد قطاع الطريق . وعادة تمييز القبور باكوام من الحجارة ، تسود أيضا في اسبانيا ، ولاسميا في الأندلس التي لاتزال تحتفظ بكثير من آثار أسياد البلد في القديم ، العرب .

وكثير من العائلات الأندلسية تنحدر من أصل عربي (مغربي) اعتنقت المسيحية قسرا أو تقية حتى لاتطرد من الأندلس طبقا للقوانين التي سنها سان فرنائدو التي طرد

---

(1) يبلغ طول مجرى نهر ملوية الذي ينصب في البحر الأبيض 450 كيلومتر .

بموجبها ما يقرب من ثمانين الفا من المسلمين ودفع بهم الى أرض المغرب . والمعروف ان كثيرا من الأسر في شرق تونس لاتزال تحتفظ بمفاتح منازلها في الأندلس ، على العودة يوما ما الى تلك الديار لترفع علم الهلال على أسوار قصر الحمراء ، آخر معاقل الحضارة الاسلامية ومقر السلطة الشرعية للمسلمين ، والتي لاتزال تحتفظ بكل جلالها وعظمتها .

وعند هذه المرحلة ، دخلنا في القسم الجبلي من البلاد . وسلسلة هذه الجبال (جبال الأطلس) تتجه من الشرق الى الغرب . وكذلك كنا نجتاز بين الفينة والفينة واد صغيرا منعزلا يجري بين تلال جرداء ، في معظم الحالات ، لامجال للمقارنة بينها وبين السهول الخصبة والجميلة التي مررنا بها حتى الآن . وقد كنا طوال هذه المسافة نقضي الليل في اكواخ الريفيين الذين كانوا يبدون جميع مظاهر المودة والصداقة ، وكانوا يقدمون لنا الضيافة ، ولاسيما بالكسكس واللحم المغلي . وفي جميع الحالات ، كنا نتناول الطعام الذي يقدم لنا بكثير من الشهية ونفضله على طعامنا كما نفضل طريقة الطهي العربية على الطريقة الأروبية .

وفي هذه المنطقة ، ابتاع السيد مانونتشي جوادا مطهّماً ، لم يكن من الممكن أن يكلفه أقل من مائة جنيه في انجلترا ، وذلك بسعر لم يكن يتجاور 60 دولارا . والحقيقة أن الانسان يستطيع أن يشتري جميع ضروريات العيش في هذا البلد باسعار معقولة فان ثورا يبلغ وزنه ما يتراوح بين 500 و 600 كيلو ، لا يكلف سوى نحو 5 أو 6 دولارات ، والنعجة لا يزيد ثمنها عن دولار ونصف دولار . وأما الدجاج فان القطعة منها لا تزيد قيمتها عن حوالي أربع بنسات انجليزية .

وفي 18 من الشهر ، قضينا ليلتنا في مكان يدعى « امبوهل » ويبعد عن تازا بمسيرة نحو يوم . وهذا المكان ليس من الأماكن التي يرتاح الانسان للاقامة فيها ، حيث كان ، كما علمنا ، مسرحا لعدوان قام به في الليل قطاع الطريق على جماعة من المسافرين الذين كانوا يتجهون الى تلمسان حاملين معهم كميات من الاسلحة للامير عبد القادر . وقد قتل اثنان من رجال هذه الجماعة وهرب قطاع الطريق ببغلين محملين بالبنادق .

والواقع اننا منذ غادرنا الشراقه ونحن نزود بحارس من رجال كل قبيلة نزلنا بارضها . والى جانب هذا الحراسة ، كنا نخصص ثلاثة من رجالنا ايضا للسهر علينا . وقد كنت انا والسيد مانوتشي نعمل بالتوالي ضابطين للحراسة . وفي هذا الصباح نجا دليلنا باعجوبة من الموت حينما ابتعد عن الخيام للبحث عن بغل تائه . فان احداً من المسافرين لم يره وهو يبتعد عن مكان إقامتنا . ولما عاد ، انذره حارس الليل ، كنديدو ، باللغة الاسبانية عند ما رآه يقترب من الخيام . ولكن الرجل لم يعبأ بهذا الانذار ومضى في طريقه الى المخيم . وعند ذلك ، فتح كنديدو الذي اراد أن يدلل على حماسة في الحراسة زناد بندقيته . ولو مضت بضع ثوان أخرى ، لتلقي البغال شحنة تلك البندقية كاملة . ولكنني لما سمعت كلمة الانذار ، خرجت في الوقت الملائم لأنقذ حياة البغال !

* * *

الفصل الثاني

رحلنا عن قرية «أمبوهل» في صباح يوم 19 وواصلنا طريقنا في اتجاه تازا ، حيث سننتظر الزاد الذي وعدنا به الحاج طالب . وهناك في تازا أيضا سننتظر مقدم السيد «صمويل ابنصور» الذي بقي في تيطوان في انتظار وصول شحنة من الأسلحة لحساب صاحب السمو الملكي الأمير عبد القادر.

واما طبيعة البلد الذي نسافر فيه الآن ، فهي تشبه الأراضي التي قطعناها مؤخرا . وفي الطريق شاهدنا عددا آخر من معادن الملح . ولما حلت الساعة الحادية عشرة أخذت الأمطار تهطل بغزارة . وعلى الرغم من البلل الذي لحق بثيابنا ، فقد كانت شهيتنا للطعام على أحسن مايرام . وكذلك توقفنا عند نهر تازا الذي ينصب في نهر «سبو» (1) عند فاس ، وأخذ كل منا رغيفا وقطعة من اللحم اللتي طبخت لنا في تيطوان وتناولنا فطورا ، مثل فطور الجنود . ونظراً لأن ما جلبناه معنا من النبيذ قد نفد في الطريق ، فقد اكتفينا بجرعات من الماء القراح الذي ولو كان رقراقا وعذبا ، فقد كنت استبد له بكل سرور بكأس من البزاندي الفرنسي . وبعدما انتهينا من وجبتنا السريعة امتطينا ظهور جيادنا ومضينا قدما في طريقنا.

---

(1) ينبع سبو من الريف في سلسلة جبال الاطلس الوسطى ويمر بمدينة القنيطره قبل أن ينصب في المحيط الأطلسي شمال مدينة الرباط .

وعلى الساعة الثانية بعد الزوال ، اكتشفنا لأول مرة مدينة «تازا» من جبل مشرف عليها ويبعد عنها بنحو فرسخين (1) والمدينة ذات منظر خلاب حيث تقع على هضاب تهبط تدريجيا من جبل يقع في الجنوب الشرقي منها الى واد منخفض . وبجانبي التلال التي تمتد عليها المدينة يجري واديان صغيران عميقان ؛ وبذلك تبدو المدينة وكأنها جزيرة . وتحيط بتازا غياض وحدائق غناء ، معظمها غابات البرتقال ، التي يملكها قائد المدينة وحاكمها من قبل السلطان ، وهي أجملها جميعا . وهنا يملك الحاكم منزلا ريفيا يقضي فيه عادة ، فترة ما بعد الظهر . يمتع نفسه بمنظر الجنود وهم يتدربون في السهول المجاورة .

وعلى الساعة الرابعة بعد الزوال وصلنا الى مدينة تازا التي لابد وأن تكون مدينة وحصنا عظيما في عهد الرومان . والجدير بالذكر أن آثار التحصينات الرومانية القديمة التي تتكون من سور يبلغ سمكه نحو ثلاثة أقدام وارتفاعه عشرة أقدام ، (وهو مزود بأبراج مربعة تقع كل واحدة منها على مسافة 80 ياردة من الأخرى) لاتزال موجودة عند أقدام الهضبة . وسور المدينة الخارجي لايزال سليما في عدة أماكن . وفي منتصف الطريق الى قمة الهضبة توجد قطع من السور وبقايا من الابراج مماثلة لبقايا السور والأبراج الموجودة في أسفلها ، ولو أنها في حالة أكثر تدهوراً . والمدينة كان يحيط بها سور آخر . وفي الجانب الشمالي منها تشاهد آثار مَبْنىً لابد وأنه كان قلعة المدينة أو مبنى «الكابيتول» في عهد الرومان . ونظراً لأن المدينة قد انتقلت بعد الرومان الى أيدي المسيحيين ، فإن خراب هذه القلعة وتحصيناتها كان على يدهم ، فيما أعتقد . وعلى كل حال ، فهم قد

---

(1) مدينة تازا (تازه) [عرضها الشمالي 4 ^{5} ـ 34 ^{0} ، وطولها الغربي 4 ^{0}] تقع في شرق المغرب الأقصى (وهي غير تازا الجزائرية) وتبعد عن فاس نحو الشرق بـ 127 كيلومتراً . وهي تقع في منخفض كبير يسمى «حوض تازا» يفصل بين الريف وبين السفوح الشمالية لسلسلة جبال الأطلس الوسطى . وتازا التي يرجع عهدها الى ما قبل التاريخ ، اتخذ منها الموحدون رباطا وقلعة حصينة بعد أن دوخوا جبال الأطلس العليا والوسطى . وفي أيام المرينيين ، اتخذها أبو يعقوب المريني عاصمة له وقاعدة لغزو تلمسان . ولم تزل تازا بعد ذلك ، حتى العصر الحاضر ، تلعب دورا عسكريا مهما . وينتسب الى تازا كثير من العلماء والفقهاء والأعلام .

حولوا المدينة المجاورة للسور الحالي الى مقبرة لهم . وقد حاولت ذات يوم العثور على أية نقوش في آثار المدينة لعلها ترشدني الى تاريخ سقوطها في يد سادتها الحاليين ولكنني لم أوفق الى شيئ من ذلك . على أن من الواضح أن موقع مسجد تازا الرئيسي كان في القديم معبداً للمسيحيين . والواقع أن برج الجرس (جرس الكنيسة) لايزال موجودا حتى الآن ، والبرج يستعمل منارة للآذان . وصوت المؤذن لا ينفك يصل الى مسمعي في سكون الليل كل صباح ! .

وفي تازا يصنع نوع جيد جدا من البارود يقال أن المدينة قد توارثت صناعته منذ أوائل العهد المسيحي . وفي جوار المدينة ، توجد معادن للكبريت وللملح الصخري . ولكن الكبريت لا يستخرج من هذه المناجم بسبب عدم وجود شخص يعرف طريقة تنقية الكبريت وازالة التراب الذي يختلط به . إنني اعترف بانني لست متخصصا في علم الاثار . ولكنه ، نظرا لانني لم أمر بآثار مدينة «فراوه» (Pharaoh) القديمة ، بل ولم أسمع من أحد بوجود هذه الاثار ، فأنا أتوهم أن تازا قد قامت في مكان هذه المدينة . ولكنني ، على كل حال ، أترك مسألة التعرف على المدينة القديمة في تازا لعلماء الآثار . وأنا أحدد موقع المدينة على وجه التقريب بين درجتي 36 شمالا و3 غرب خط جرينويتش .

وعندما اقتربنا من المدينة كان الضابط قد تقدمنا برسائل من السلطان الى حاكم المدينة يأمره فيها بأن يمدنا بكل ما نحتاج اليه من المساعدة ويقدم الينا كل ما نطلبه اليه على حساب الحكومة . وقد استقبلنا عبد الكريم عند مدخل المدينة ومعه اثنان من شيوخ اليهود الذين رافقانا الى منزل يمكن مقارنته من حيث القذارة بحظيرة خنازير . وقد كانت النتيجة أن لكمة من السيد مانوتشي على أذن اليهودي قد ضمنت لنا الحصول على منزل أفضل !

وعلى الرغم من أن المنزل الذي حصلنا عليه ليس بالانيق ، فهو على كل حال لا يقارن بالمنزل الاول الذي اقترحوه لنا....

وإثر ذلك ، استقر بنا المقام وأخذنا الغرفتين النظيفتين في الدور الثاني وأخرجنا الاسرة التي تحتلهما منهما وأنزلت الى الدور الارضي الذي هو أقل نظافة .

وفي اليوم الأول ، حضر لنا الشيوخ الذين أمرهم حاكم المدينة بالعناية بنا وبتقديم كل ما كنا في حاجة اليه . وقد موا لنا عشاء طيبا وفطورا لائقا في اليوم التالي . ولكن غداء اليوم التالي هبطت قيمته بصورة محزنة . وقد تناولنا طعام العشاء لسبب واحد فقط ، وهو ألا نبيت بدون عشاء . وفي الصباح ، أرسلنا الى الشيوخ من يبلغهم أنهم اذا أحضروا إلينا غذاء مماثلا ، فسوف نقذف بهم من على شرفة المنزل !

وفي نفس الوقت قمنا بشراء الزاد الذي نحتاج إليه في ذلك اليوم من السوق ، وكتبنا رسالة الى حاكم المدينة نبلغه فيها أننا سنخبر الحاج طالب بالاهمال الذي لقيناه وبالاستهانة بأوامر السلطان .

وهذا المسعى كانت له النتيجة المرغوب فيها ، حيث أدرك قائد تازا أن شكوى من هذا النوع سوف تعرض منصبه للخطر ، بل لربما اضطر الى دفع غرامة كبيرة لتهاونه . وكذلك وجه الينا كاتبه ليترجانا ويطلب إلينا عدم القيام بهذه الخطوة طلب منا أن نبعث اليه في كل صباح بقائمة الاشياء التي نحتاج اليها . وإذا لم يحضرها اليهود ، فا علينا الا أن نبلغه ذلك حتى يتخذ الاجراءات الضرورية لحملهم على ذلك ، ومنذ ذلك التاريخ ونحن نتلقى كل ما نطلبه وبكميات كبيرة (الدجاج ، ولحم الخروف والزبيب والتين الخ .) ، وحتى الطباق ، فقد كنا نتلقاه بدون مقابل .

وفي هذه الاثناء ، كان علينا أن نستمر على تعيين حراس من بين رجالنا بالليل ، وذلك على الرغم من أن حاكم المدينة قد خصص ستة جنود لحراستنا ، لأن حراستهم لا يمكن الاعتماد عليها . وقبل دخولنا إلى هذا المنزل ببضعة أسابيع قام اللصوص بسرقته واستولوا على كل ما فيه . والواقع أن معظم مناطق المغرب الأقصى ، بما في ذلك مدينة فاس نفسها ، أصبحت مكانا لا يتوفر فيه الأمن ، بسبب السياسة الخاطئة التي يسير عليها السلطان الحالي الذي لا يعاقب أي مجرم بالموت . وبذلك تدهور نفوذه

وضاعت هيبة القانون . واللصوص يعملون مطمئنين الى أنهم ، حتى لو اكتشفت جرائمهم فعلا ، فان العقاب الوحيد الذي سينزله بهم القانون ، لايتجاوز دفع غرامة تتناسب مع حالتهم المالية وما يملكونه من الأشياء . ونتيجة لذلك ، فان الكثرين منهم لايتعرضون للعقاب اطلاقا ، حيث أن الشريعة الاسلامية تنص على بنفس المبدإ المعروف في القانون الانجليزي : السلطة تفقد حقها بالنسبة الى الشخص الذي لا يملك شيئا .

وفيا يتعلق بالجنس اللطيف ، فان من المستحيل ، بصفة عامة ، أن تقع عيناك على وجه سيدة في هذا الجزء من العالم . ولكنه في هذه القضية أيضا ، لا توجد قاعدة بدون استثناء ! وهذا يتضح في الحادث التالي الذي وقع عقب وصولنا بوقت قصير :

السطوح في المغرب الأقصى تشبه السطوح في كثير من البلدان الشرقية . والاتصال بين سطح وآخر يتم بدون صعوبة . ونظرا لأننا نعتبر نوعا من الحيوانات الغريبة ، فاننا لا نستطيع الصعود الى السطح دون أن نشاهد على السطح المقابل صفوفا من النساء العربيات واليهوديات اللائي يحاولن اختلاس نظرة الينا . وكان من بين النساء المتطلعات شقيقتان إحداهما تدعى زليخة والأخرى صبيحة . والكبرى من الشقيقتين ذات عينين زرقاوين جميلتين ومنظر يذكرني بأجسام الفتيات الاغريقية . واما صبيحة ، كانت ذات وجه مستدير وعينين سوداوين ذات لحاظ فتاكة .

إن كلتا الفتاتين تستحق مكانة مرموقة بين الحوريات ! وعلى الرغم من أن لباس المرأة المغربية لم يفصل بقصد إبراز محاسنها ولاظهارها في أجمل أوضاعها ، فان المرء يمكنه أن يستنتج من بعض تعاريج ثيابهن أن أشكالهن تضاهي وجوههن الجميلة .

والواقع أن العيون السوداء تنطوي دائما على جاذبية وسحر خاص ، سواء أكانت صاحبتهما عربية أو يهودية أو مسيحية . هذا ، على الأقل ، ما كنت أحس به دائما .

وذات صباح كنا في مغازلة صامتة بريئة أنا و « دومينيجو» ، فأشرنا اليهن بالقدوم الى سطحنا ، ونحن — بالطبع — لم نكن نتصور وجود أية فرصة لتحقيق هذه الرغبة .

ومضى النهار ونسينا الموضوع كلية . ولكن سوء طالعنا شاء أن يسمع الحرس على الساعة الثامنة ليلا وقع أقدام على السطح ، وعلى الفور ، صاحوا باقتراب اللصوص . وإثر ذلك ، سددت أضواء المصابيح على السطح واستعد الجميع لخوض معركة مع اللصوص . . .

وعلى الرغم من أن أحدا لم يشاهد أثرا للصوص ، فقد كان الجميع مقتنعين بأن الأقدام التي سمعوا وقعها ، كانت حقيقة أقدام لصوص !

أما أنا ، فقد خطر ببالي أن من المحتمل أن تكون أقدام الصديقتين هي أقدام اللصوص المزعومة ! على أن ظنوني لم تلبث أن تأكدت . فان الحاج محمد الذي يتحدث قليلا من الاسبانية والذي كان يبدي لي كثيرا من الاعتبار ، قد أخبرني بأن هذه هي الحقيقة وأن زوج زليخة قد اشتبه في الأمر هو الآخر . . . وأنه أتهم المرأتين عند القاضي بالتحدث الى مسيحي . وكذلك وضعت زليخة في السجن حيث ستعيش اسبوعا كاملا على الخبز والماء . . .

وبعد هذا الحادث ، اختفت زليخة وأختها صبيحة من السطوح المقابلة الى الأبد !

واليهوديات يتمتعن بحظ كبير من الجمال في معظم الحالات . ونحن لم نتمكن من إقامة أي اتصال بهن حيث لم يكنّ يتحدثن سوى العربية والعبرية . وكلانا ، أنا و «دومينجو» ، يجهل هاتين اللغتين جهلا تاما . وقد كان السيد «مانوتشي» هو الوحيد الذي يستاثر بالحديث مع اليهوديات الجميلات . والشيء الذي أثار انتباهي بصفة خاصة في لباس هذه السيدات ، هي الطريقة التي يلبسن بها أقراطهن . فبدلا من تعليق القرط في أسفل الأذن ، كما جرت العادة ، فهن يعلقنها في أعلى الأذن . ونظرا لان الأقراط من الحجم الكبير ، فقد كانت الأقسام العليا من الأذن تتدلى . تماما ، مثل آذان الحمير المتعبة !

وعلى الرغم من أن هذه الطريقة تعتبر هنا آخر كلمة في الأناقة ، فإني أعترف بأنني لا أجد لها إلا فتنة ضئيلة . . .

وهنا يجب ألا يتهمني القارىء بمجانبة الحقيقة إذا قلت إن حياة المرتد والجندي الهارب هنا لا تساوي مثقال ذرة ، وأن الجندي الذي يهرب من سبتة أو مليلة يبيعه الأشخاص الذين يسقط في أيديهم بثمن لا يزيد عن ثلاثة أو أربعة دولارات . وأما الذين يسعفهم الحظ ويصلون الى فاس ، فينجحون ، عادة ، في الدخول في حرس السلطان الذي يضم حوالي 6000 جندي فرنسي واسباني من الهاربين .

والذين لا ينجحون في الانضمام إلى حرس السلطان ، يرسلون الى قرية تبعد عن مدينة فاس بنحو ستين فرسخا . وهناك ينظمون في فرق ويختار من بين الأذكياء منهم ضباط . والباقي يقلبون الأرض ويحرثونها ويزوجون أو يعملون في الحقل الزراعي بأجر مقداره ثلاثة دولارات في الشهر . وهم يعتبرون جنودا فلاحين ويخدمون السلطان كلما دعت الحاجة اليهم (على غرار القرى العسكرية الروسية) .

أبلغني اليهودي الذي نزلنا في بيته (وهو صائغ فضة) أن عربيا يحترف مهنته يملك ثلاثة من الاسبان يعملون في معمله ، اشتراهم بثلاثة وسبعة وعشر دولارات على التوالي . واليهود غير مسموح لهم بامتلاك العبيد . وهذه الحقيقة كانت مثارا لكثير من الأسف في نفس مضيفنا الذي يرغب بدون شك في الحصول على بعض المساعدين بالسعر المذكور أعلاه ...

والعبيد السود كثيرون هنا . وسعر الواحد منهم يختلف باختلاف عمره وبما إذا كان ذكرا أو أنثى ، ويتراوح بين 30 و 80 دولار . ولكنه علم أن أمة جميلة كلفت مبلغ مائة دولار . على أن هذا أعلى سعر سمعت بأنه دفع لشراء عبد أو أمة من السود . وأما الأمة من البيض ، فقد يدفع في مقابلها سعر يبلغ 300 دولار ، إذا كانت جميلة . ولكنها اذا تجاوزت سنا معينة فان سعرها يكون حينئذ في مستوى سعر السوداء .

منذ وصولنا الى هنا ، اعتدنا أن ننصب «رفائيل» «وكنديدو» عند باب شقتنا لحراستها من المتطفلين . وهذان الشخصان كانا لا يرحمان أي شخص يدفعه الفضول الى الدخول بدون إذن . وكثير من العرب يقومون بهذه المحاولة لاختلاس نظرة إلينا .

وفي يوم 28 ، كان « رفائيل » يقوم بالحراسة عند الباب حينما حاول أربعة أو خمسة منهم الصعود الى الطابق الثاني بالقوة . وقد قام « رفائيل » بدوره كما كان منتظرا ، فدفعهم من الدرج الى الأرض . ولما أعادوا الكرة دفعهم إلى الخارج . ومن هناك نظر الي أحدهم وبصق قائلا : « أيها الكلب المسيحي » !

لم أفهم الشتمة التي وجهها الي ، ولكن البصاق الموجه إلي كان كافيا لدفع دم انجليزي إلى الغليان . وعندئذ توجهت الى الغرفة للبحث عن عصى لتأديب هذا الشخص الغليظ . على أن سوء حظه جعلني لا أجد في متناول يدي أية عصى . وقد كان سيفي هو أول ما وقع في يدي وكان هذا السيف حادا بحيث يمكن للانسان الحلاقة بـــه .

كان « رفائيل » قد تعقب المعتدين ودخل في مشادة مع كبيرهم وأخذ أفراد العصابة يستلون خناجرهم . ونظرا لعدم رغبتي في جرح أحدهم أخذت أضرب كبيرهم بعارض السيف . وهذا الشخص الفاضل الذي كان يتوهم ، بدون شك ، أن سيفي غير حاد بالكفاية استحوذ عليه بيده وحاول أخذه من يدي . وهنا بدا أن الأمر أصبح خطيرا حقا . فلو تمكن هذا الشخص من الاستيلاء على سيفي ، لكفاني ، بدون شك، مؤونة كتابة هذه السطور .

وعند هذه النقطة ، سحبت سيفي من يده بسرعة تاركا ثلاثة من أصابعه شبه مقطوعة ثم سددت اليه سن السيف ، وجرحته جرحا خفيفا في جانبه الأيمن . وعند هذه النقطة تراجع المعتدون الى الباب الخارجي وتركوني أنا و « رفائيل » سادة الموقعــة وكانت الغنيمة عبارة عن سكين طويل سقط منهم عند انسحابهم المفاجئ .

واما اليهود اصحاب المنزل ، فقد وقعوا في دهشة كبيرة حين راوا مسيحيا يضرب مغربيا ، وفي دهشة أكبر عندما رأوني أنظر الى هذه المسألة بقلة اكتراث . وكذلك اقسموا بأن المغاربة سوف يهجمون على المنزل وانهم سيحولوننا جميعا الى لحم « مفروم »...

ولتهدئة روعهم ولتجنب المزيد من التعقيد ، كتب السيد « مانوتشى » رسالة الى حاكم المدينة ذكر فيها أن عددا من العرب قد حاولوا اقتحام منزله بالقوة مستعملين السكاكين

ضد أحد خدمه من المسيحيين . وقد قام الأخير بجرح واحد منهم وطلب إليه أن يعاقبهم على عدوانهم وأن يصدر أوامره بعدم اقتراب أحد منهم من المنزل إلا إذا كان ذلك للقيام بأعمال ، حيث أن حوادث أخطر قد تقع اذا لم يتخذ مثل هذا الاجراء.كان حاكم المدينة يمتع نفسه في حديقة منزله حينما وصل اليه موسى ، حامل الرسالة. وقد كان من حسن الحظ أن القايد كان في مزاج مرح فاستقبله وأجلسه وقدم اليه فنجانـــا من القهوة وسأله أن يروي له تفاصيل الحادث . وبالطبع ، فان رواية الحادث كانت في صالحي . وبينما كان موسى في منزل الحاكم ، عاد العربي الجريح . فقد كان الجرح أخطر مما كنت أتصور. وكان في رفقته نحو أربعين من العرب ليطلبوا الى أن أرضى بأن تقطع يدي مقابل يد هذا الشخص . ولكن الحاكم الذي سمع شكوانا أبلغهم أنه لو لم يكن هذا الشخص قد جرح جرحا خطيرا لأمر بعقابه على فعلته . ولكنه ، وهو في هذه الحالة ، يمكنه أن ينصرف على ألا يعود الى مضايقة المسيحيين في المستقبل حتى لا يتلقى درسا مماثلا . وكذلك تخلصنا من هذه القضية المؤلمة بحيلة . ولكن صديقي العربي الجريح لم يقتنع بحكم قائد تازا ، ولذلك ، سافر الى فاس ليقدم شكوى الى السلطان . على أن الحاج طالب قدم للسلطان نفس التوضيح الذي قدمناه للحاكم . وبذلك نجت يدي اليمنى من المصير الخطير الذي وضعت فيه نفسهـا !

الفصل الثالث

والى جانب صديقنا المذكور في الفصل السابق ، تعرض يهودي آخر لغضب السيد «مانوتشي» ، لأنه أطلق لسانه بالقول بأن السبب الذي حال دون دخولنا الى فاس يرجع إلى عدم السماح لنا بذلك . فان هذا التعبير الخالي من الحذر والاحتياط ، قد كلفه مائة ضربة بالسوط على أسفل قدميه . وكذلك كلفه الأمر نفقات إقامته في السجن لبضعة أيام حتى تستريح قدماه...

وهذا العقاب أنزل باليهودي بناءا على أوامر الحاكم . وكذلك سمعنا بالمساء كثيرا من عويل اليهوديات بسبب ما نزل بيافع يبلغ الرابعة عشرة من العمر ، وهو ابن شقيق صاحب المنزل الذي نقيم فيه . فقد تعودنا على غلق أبواب المنزل كل يوم على الساعة الثامنة مساء ، ولم نكن نسمح لأحد بالدخول بعد ذلك إلا إذا كان قد حصل على إذن صريح بالتأخر عن هذا الموعد من حاكم «قلعتنا» ، السيد «مانوتشي» . فقد سمح اليهودي لأحد الشبان العرب بالدخول الى المنزل بحجة أنه جاء لزيارة بعض اليهود. وبعد محاكمة قصيرة أصدرنا عليه حكما بخمسين جلدة . وقد نفذ هذا الحكم فيه في الحال ... فان الحاج محمدا وموسى خبيران في ربط رجلين للجلد ، بينما كان الجندي بارعا في استعمال عصا من عود البرتقال لهذه الغاية .

اليوم هو التاسع والعشرون من الشهر ، وهو يوم السوق . ولما اقتربت الساعة من الثانية عشرة ، جاءنا اليهود الذين نقيم في منزلهم ليخبرونا أن ثورة قامت في المدينة وأننا كنا السبب

فيها . وعلى الفور ، اتجهنا الى سطح البيت لاستطلاع كنه الخبر وأنا أعترف أن هذه القضية الجديدة كانت تقلقني بعض الشيئ . فقد شاهدنا ما يتراوح بين ألفين أو ثلاثة آلاف شخص يغدون ويروحون في المكان الذي كانت تحتله قلعة المدينة في الماضي والذي أصبح الآن مكان السوق ، وكذلك رأينا أبواب المدينة مغلقة ، وكل شيئ يدل على أن ثورة وشيكة الانفجار.

وعلى الفور ، رتبنا رجال قوتنا الصغيرة للدفاع عن «قلعتنا» بأفضل الطرق . أما أنا ، فقد بقيت على سطح المنزل لأراقب تحركات الجماهير.

وضعنا اثنين من الحرس عند باب الساحة الخارجي واثنين عند الباب الداخلي ، بينما احتفظنا باثنين كقوة احتياطية وضعناهما عند شرفة شقتنا . وبعد ذلك وضعت نفسي مع موسى عند الباب الخارجي .

ولكنه بعد مضي حوالي ساعة ، اتخذت الأمور مجرى سلميا ، فأرسلنا الحاج محمدا ليعمل للحصول على معلومات بشأن ما وقع في السوق .

ولما عاد أخبرنا بأننالم نكن سببا لهذه الاضطرابات بحال من الأحوال ، وإنما تسبب فيها بدوي طعن بدويا آخر بخنجره وقتله في عين المكان . وقد أغلقت أبواب المدينة لمحاولة حصر المجرم والقبض عليه ، ولكنه هرب ونجا برأسه ليعتصم بالجبال المجاورة . وقد تساءلت عما إذا كانت السلطة قد اتخذت إجراءات للقبض عليه ، فقيل لي أنه متى أسعف الحظ المجرم الهارب ، فأن يد العدالة لاتصل اليه ، وإنما تتعرض حياته للخطر فقط ، إذا قرر أبناء عائلة القتيل الأخذ بثأره .

وفي 31 من الشهر ، عاد الرسول الذي أوفدناه الى فاس حاملا معه رسائل الى حاكم تازا يأمره فيها الحاج طالب بأن يمدنا بالعدد الذي نراه كافيا من الفرسان ليرافقونا الى معسكر القائد بوزيان ، قائد قوات السلطان في المنطقة التي تمتد من تازا حتى الحدود الجزائرية والذي يقع معسكره على الطريق المؤدية الى تلمسان . وقد أصدر السلطان أوامره إليه بأن يقتطع من جيشه قوة الخيالة التي تحل محل القوة التي يعينها قائد تازا

لمرافقتنا وأن يخصص لنا بعد ذلك القوات الأخرى الضروية لحمايتنا حتى الحدود ، حيث تحل محلها قوات من جيش الأمير عبد القادر ، إذا رأى الخليفة البوحميدي (خليفة تلمسان) أن ذلك ضروريا.

وهنا أيضا تلقيت نبأ سارا ، وهو أن أربعة ضباط من رفقائي في السلاح في اسبانيا ، قد دخلوا في خدمة الأمير عبد القادر وأنهم قد غادروا جبل طارق في طريقهم الى تيطوان ، على أمل أن يلتحقوا بتازا . لقد سررت أعظم السرور بخبر مقدم هؤلاء الزملاء الضباط الذين يعتبر أحدهم من أعظم ضباط المدفعية ، وستكون خدماته ذات أهمية عظيمة في جيش الأمير عبد القادر. وأنا قد أتيح لي في مناسبات عديدة أن أشاهد خبرته وبراعته في ميدان القتال ضد الكارليين . وعلى الرغم من أن جيش العدو الذي سيواجهه الآن (الجيش الفرنسي) متفوق على جيش «كارلوس» ، فان الجيش الجزائري يتمتع بشجاعة كبيرة يزيد من قيمتها تعصب العرب واستماتتهم من أجل وطنهم ، وهذه الشجاعة لا يمكن أن يصدقها سوى من أتيح له أن يشاهدها بعينيه . فان كثيرا من العرب الذين يأتون من الداخل إنما يلتحقون بميدان المعركة لغرض واحد : الاستشهاد ، حتى يحظوا بالجنة الموعودة.

على أن الضباط المذكورين لم يتمكنوا من الدخول الى أراضي الامير ، وقد كان ذلك نتيجة لموقف متصلب من الحكومة الفرنسية التي صرحت للسلطان بأنها ستعلن الحرب على المغرب الأقصى ، إذا سمح لهم بالدخول الى أراضيه . لقد كان أصدقائي من الجنود وليسوا من المحامين . ولو كان لديهم معرفة بالقانون ، لطلبوا جوازات سفر من الحكومة البريطانية ليدخلوا بها إلى فاس ، عاصمة بلد حليف . ومن هناك ، كان يمكنهم أن يتجهوا إلى تمبكتو ، لو أرادوا أن يتحملوا بعض المخاطر . ولكنني أعرف أن الخطر ليس هو الذي جعل أصدقائي يتراجعون ، بل إن سبب ذلك هو جهلهم بقوانين بلدهم والامتيازات التي يتمتع بها الرعايا البريطانيون الذين يمكنهم رفض الاجابة عن طبيعة الاعمال التي ينوون القيام بها في البلد الذي يتجهون اليه . وكذلك كان يمكنهم القيام بهذه الرحلة حتى يصلوا الى أراضي الأمير ، وبعد ذلك يتركون تسوية الأمور لحكومة

الأمير وللحكومة البريطانية . وعندئذ فقط تثار مشكلة ما إذا كان هؤلاء الضباط قد حضروا الى أراضي الامير بناء على موافقة الحكومة البريطانية ؛ أم بدون موافقتها .

وفي أول مارس ، وجهنا رسالتين ، احداهما الى الحاج طالب نرجوه فيها الاسراع بترحيل السيد «إبنصور (1)» والرسالة الأخرى كتبناها الى صاحب السمو الملكي الأمير عبد القادر . وقد حملنا نفس الرسول رسالة أخرى الى السيد «بنونه» (2) حاكم تلمسان من قبل الأمير ، وذلك لكي يصدر الأوامر بتوفير قوة من الفرسان لمرافقتنا ، إذا اقتضى الأمر ، عندما نصل الى الحدود الجزائرية .

قمنا اليوم بشراء جوادين ، دفعنا في مقابل أحدهما 25 دولار ، وفي مقابل الآخر 10 دولارات . والأول للركوب ، والثاني لنقل الأمتعة . وهذا السعر المنخفض الذي دفعناه للحصانين ، جعلني اتساءل لماذا لاتصدر السلطات المغربية الخيول الى جبل طارق ، أو الى الأسواق الاسبانية حيث تبلغ قيمة الفرس الذي يساوي هنا 30 دولار ، مالا يقل عن 200 دولارا . على أنني اكتشفت أن السلطان يفرض ضريبة على تصدير الخيول مقدارها 100 دولار على الفرس الواحد . وأما اناث الخيل ، فقد منع تصديرها بتاتا . وبالاضافة الى

(1) يهودي كان يقوم بدور الوسيط لحساب الأمير في مختلف العمليات التجارية التي تجري مع التجار الاسبان والانجليز في جبل طارق ، ولا سيا ، فيما يتعلق بالذخيرة والأسلحة .

(2) كان ابن نونة عاملا للسلطان عبد الرحمن على تلمسان والأراضي التي تمتد من وجدة حتى نهر يسّر الغربي ، خلال الفترة التي أعقبت سقوط الإدارة التركيّة في ولاية وهران وقبل أن يتولى الحكم عليها الأمير عبد القادر . وقد كان ابن نونة رجلا ثريا وذكيا وصاحب نفوذ كبير في بلاط السلطان عبد الرحمن ثم لدى الأمير فيما بعد . وابن نونة ينتمي الى أسرة أصلها من فاس . وعندما وجه السلطان «ابن الحمري» واليا على تلمسان ، سارع ابن نونة بالاعتراف به ، وعقب ذلك ، هاجر الى المغرب حيث أقام مدة ثم عاد الى تلمسان حيث قام تعاون وثيق بينه وبين «البوحميدي» ، خليفة الأمير . ومن الأعمال المهمة التي قام بها ، محاصرة الكلفيين ومصطفى بن اسماعيل (1834 ـ 1836) . وقد واصل ابن نونة المقاومة في تلمسان عقب احتلال كلوزيل للمدينة حتى سلمت الى الأمير . بموجب معاهدة تافنا . وقد توفى ابن نونة في وجدة بوقت قصير قبل الحوادث التي يرويها الكلونيل اسكوت والتي شارك فيها وبعد معركة إيسلى بقليل .

الضريبة على صادرات الخيول ، فان المصدر يحتاج الى تصريح خاص يصدره السلطان نفسه .

أما فيما يتعلق بتصدير المواشي ، فان هذا الأمر خاضع لاتفاقية عقدت بين الحكومة البريطانية والسلطان ، ويصدر المغرب بموجبها كميات من المواشي لتموين حامية جبل طارق البريطانية ، وذلك على أساس 5 دولارات للرأس ، وتسدد المبالغ المستحقة للسلطان مقايضة بالبارود والأسلحة النارية .

والضريبة المفروضة على تصدير البقر هي 10 دولارات للرأس الذكر ، و100 دولار للبقرة . بل إن مصدري الدجاج والطيور أنفسهم يدفعون ضريبة على الصادرات بمعدل أربع بنسات للطائر الواحد ، وهو السعر الذي يبتاع به في المغرب . وعلى الجملة ، فان حكومة المغرب تضع كثيرا من القيود على تصدير إناث الحيوانات .

والكثيرون من اليهود الذين يعملون في جبل طارق يتركون زوجاتهم في تيطوان حيث يمنعون من نقلهن . والتصريح للرجل بنقل زوجته يكلفه حوالي 200 دولار . والواقع أن نظام الحكومة المغربية يقوم على كثير من القيود المتشددة . وجميع السلع المستوردة ، مثل البارود والكبريت والحرير والحديد ، تحتكر الحكومة استيرادها،ولا يمكن للتجار في جميع المدن التعامل فيها الى لحساب الحكومة . وكذلك يحظر حظراً باتا على الشخص أن يشتري من السلع المذكورة سوى الكميات الضرورية لاستهلاكه الشخصي . ومن تجاوز هذه الحدود ، يعاقب بقطع يده .

فالكبريت ، مثلا ، يكلف الحكومة المغربية لدى وصوله الى تيطوان دولارين للكيل . ولكنها تعيد بيعه بما يتراوح بين 16 و 20 دولارا.على أن الصبغة القرمزية هي أكبر مصدر لدخل الحكومة من التعرفة الجمركية ، نظرا لأن اللون القرمزي هو الصبغة المفضلة لثياب المغربيات واليهوديات على السواء . والأمر كذلك بالنسبة الى بعض ملابس الرجال . والصبغة القرمزية تساوي هنا حوالي 16 دولار للأوقية . وقد اتخذت إجراءات مشددة جدا لمنع التهريب ، بحيث أن أحدا لايحاول القيام بهذا النشاط .

وفي جميع المدن التي يصنع فيها الحرير الذي تستعمل فيه الصبغة القرمزية ، تعين الحكومة صباغا رسميا هو الذي يقوم بعرض المواد التي هي على وشك الصبغ على ممثل الحكومة الذي يزوده بالكميات التي يحتاج اليها من الصبغة . وعندما تنتهي عملية الصبغ تعرض الأقمشة المصبوغة على وكيل الصبغة القرمزية ليتأكد من أن الكميات التي ابتاعها الصباع قد استعملت كلها ولم يحول شيءُ منها الى أي مكان في المملكة ، ولم يحتفظ بأي قدر منها لديه ، بحيث يعيد بيعها بدون ضرائب جمركية . والصباغ مضطر الى اعادة ما لم يستعمله من الصبغة الى الحكومة التي يقوم أعوانها بجولات تفتيشية ليضمنوا عدم امتلاك شخص لأكبر من القدر الذي يحتاج اليه .

تلقينا اليوم أخبارا تقول بأن الجيش الفرنسي سيشرع فورا في حملة عسكرية واسعة النطاق . والأمير عبد القادر يفترض أن تكدمت ومعسكر وتلمسان هي هدف هذه الحملة وتبعا لذلك ، أصدر أوامر الى السكان في نطاق خطة عسكرية يسير عليها ليستعدوا للجلاء عنها . وكذلك أصدر أوامر أخرى بتعبئة جميع الرجال الذين يستطيعون حمل السلاح ووضعهم تحت العلم . وقد فرض على كل جندي أن يحمل معه من الزاد ما يكفيه لمدة عشرة أيام .

لقد تولى الجنرال بيجو القيادة في الجزائر (1) وأما الدوق أورليان والدوق نمور ، فهما مصممان على الحصول على الأوسمة والنياشين في ميدان القتال في أفريقية ، وذلك حتى لوكسبا هذه الأوسمة والنياشين في قضية غير عادلة وفي حرب تدار معاركها بطريقة وحشية لا يوجد مثيل لها الا في الحرب التي يقوم بها البيض لا بادة قبائل الهنود الحمر في حوض نهر المسيسبي في أمريكا .

لقد ساورتني شكوك في ذلك الحين ، لم تلبث أن تأكدت ، بأن الهدف من هذه الاستعدادات العسكرية الكبيرة هو بعث الرعب في نفس الامير لحمله على عقد معاهدة صلح مفيدة لفرنسا . لأنه لا يمكن أن يساور الفرنسيين أمل كبير في الحصول على أية

(1) تولى الجنرال بيجو الولاية العامة في 29 ديسمبر ، خلفا للمريشال فالي .

نتيجة تفخر بها «الأمة الكبيرة» (*) في العمليات العسكرية في هذه المقبرة الضخمة للجنود الذين يحارب العديد منهم مكرهين ، ضد العرب الذين ولدوا أحرارا ويدافعون عن حقوقهم المشروعة .

ونحن كنا نعلم أن الأمير عبد القادر سوف لا يعقد أية معاهدة مع الفرنسيين قبل وصولنا إليه . ومع ذلك ، فقد شعرنا بالقلق فيما يتعلق بمساعدتنا لمواصلة سفرنا ، فقد كنا واثقين من أنه اذا كان الجيش الفرنسي قد غادر مدينة الجزائر ووهران في نطاق الحملة المزمعة ، قبل وصولنا الى «تكدمت» ، فسيكون من أصعب الأمور علينا الالتحاق بالأمير ، الذي يرجح أن يضرب معسكره لجمع قوات للقتال من غير الجيش النظامي في مكان لا نعرفه في داخل البلد .

قام بزيارتنا الليلة عربيان في محاولة لمعرفة ما إذا كنا متيقظين أو غافلين . وقد كنا في الليلتين الماضيتين لا نخصص لحراسة المنزل سوى أربعة جنود ، اثنين منهم كانا دائما ينامان في السطح . وهذان الجنديان هما اللذان دقا جرس الخطر بانذار الزائرين غير المرغوب فيهما . وعلى الفور استيقظ الجنديان القائمان بالحراسة في المنزل . ولما كنا ننام بثيابنا كاملة فأنه لم تمض سوى دقائق قبل أن نقف في السطح مشهرين أسلحتنا وعلى استعداد لصد المعتدين . وعقب ذلك بوقت قصير ظهر أحد اللصين على السطح المجاور . ولما أنذرناه بقولنا «من هو» (*) ، تراجع دون أن يجيب عن سؤالنا .

وقد فهمنا أن زيارته كانت استطلاعية ، ولما وجد أننا قوة مهمة تسلل وانسحب في تعقل ورزانة ولكنه بينما كان ينزل من سطح المنزل المقابل الى منزل أسفل منه ، عاجلناه بطلقة بندقية ، لابقصد إصابته ، بل لمجرد تخويفه قليلا .

وفي صباح اليوم التالي ألقي القبض على اللصين المتسللين وزج بهما في السجن. والغريب أن الشخص الذي أطلقنا عليه النار ، قد تبين أنه ينتمي الى أسرة من الأشراف ،

(*) العلامات في الأصل .

(*) بالعربية في الأصل .

ولكن دماء الأشراف كثيرا ما تختلط بدماء غير الأشراف وتنتج عنه نماذج تماما مثل النموذج الذي نعرفه في انجلترا في هاري الخامس المشهور. وبالتالي، يجب ألا نندهش لانحراف في بعض الأشخاص الذين ينحدرون من سلالة النبي العربي.

كانت هذه الليلة، حقا، ليلة مغامرات. فلم أكد أستريح قليلا حتى أيقظتني طلقات مسدس في داخل الغرفة. وفي ثانية واحدة كنت واقفا على قدمي. ولما نظرت حولي، وجدت الغرفة مفعمة بالدخان «وكنديدو» واقفا في وسطه وهو أشبه ما يكون بشبح الموت، كانت عيناه شاخصتين وتكادان تخرجان من حدقتيهما، وفمه مفتوحا تبدو منه أسنانه البيضاء بوضوح. وكلا ذراعيه ممتدتان في تجاه أفقي وهو يمسك في يده اليمنى بسلاح الموت، بينما يدل مظهره العام على الذعر والدهشة.

وأول صيحة أطلقتها، كانت «ياللشيطان، ماذا يجري هنا!»

والقضية أن الرجل الذي أحدقت الاخطار بنا بسببه أراد أن يفحص مسدسا ليرى ما إذا اكان في حالة تسمح باستعماله، ففتح الزناد ولما أعاده الى مكانه بحذر، انفلت منه وانطلقت الرصاصة التي استقرت في الحائط على بضعة أقدام فوق رأسي. وعندما تراجعت الرصاصة من الحائط، لمست سراويل موسى المغربي (وهي من النوع التركي الفضفاض) الذي كان راقدا بجانب «كنديدو»، واشتعلت فيها النار. وكذلك أصيب «كنديدو» برعب أذهله عن كل ما حوله بحيث كان يمكن أن يظل على حالته هذه حتى تلتهم ألسنة النار المنزل كله. ولكنني سارعت الى إطفاء النار. أما موسى، فقد حك عينيه دون أن ينبس ببنت شفة سوى كلمة «كلب ابن الكلب» (*) التي تلفظ بها بكثير من الوقار! وكذلك أصيب مترجمي بذعر لا يقل عن هلع «كنديدو» الأسود، وهذه كانت فرصة لي لأنفجر بالضحك من كل قلبي. وعندما استعاد «كنديدو» صوابه تماما ليروي لنا الشعور الذي كان يساوره، قال لنا في عبارات لاتكلف فيها:

(*) بالعربية في الأصل.

إنه كان يحس أن رأسه أشبه ما يكون بقرعة كبيرة ! وأضاف انه لن يمس زناد مسدس بعد اليوم إلا إذا كان مسددا الى صدر عدو...

والطريف ان هذه الضجة والانفجار لم تزعج قط نوم بقية الرفقاء ، ولو أن بعضهم فتحوا أعينهم عند انطلاق الرصاصة ثم لم يلبثوا أن استعادوا أحلامهم اللذيذة..

وأما صديقي «مانوتشي» الذي كان نائما في الغرفة المجاورة فقد غلبه النوم تماما بسبب بقائه طول الليل ساهرا،بحيث أنه لم يسمع الطلقة النارية كلية .

عاد الرسول الذي وجهناه الى فاس حاملا رسائل من الحاج طالب ذكر فيها أنه استأجر الحيوانات التي طلبناها لمواصلة رحلتنا ، وقال أيضا : إن السيد «ابنصور» سيغادر تيطوان في صباح اليوم التالي .

وقد أعرب لنا الوزير الأول في رسالته عن أسفه العميق للأخبار التي وردت بأن الفرنسيين يستعدون للقيام بحملة ، وقال انه أبلغ هذه الأخبار الى السلطان وأنهما قد تضرعا (هووالسلطان) الى الله العظيم بأن ينصر صديقهما وحليفهما ، الأمير عبد القادر. وأضاف انه متأكد من أن الله سيجيب دعواتهما ويلحق الهزيمة بالجيش الفرنسي .

وعلى كل ، فإن رأيي المتواضع ، هو أن دولارات جلالة السلطان وبنادقه وما تستلزمه من البارود والرصاص ، ستكون لها قيمة لمساعدة الأمير عبد القادر أكبر من قيمة دعواته وتضرعات رئيس وزرائه .

على أن الواقع أن الحاج طالب ، بوصفه رئيس الوزارة وصديق الأمير عبد القادر الشخصي ، قد صنع أقصى ما في استطاعته لمناصرة قضية الأمير . وقد استعمل ستار التضامن الديني لكي يرد على كثير من احتجاجات الحكومة الفرنسية على حماية السلطان العلنية لمصالح الأمير ، كما يقضي بذلك الدين الاسلامي . وكذلك يعتبر الأمير عبد القادر في نظرهما قائداً لجيش إسلامي يجاهد من أجل الدين الاسلامي . وهذا هو الجواب الذي يقدمه رئيس الوزارة الى الفرنسيين كلما تقدموا باحتجاج اليه .

وكما حدث أثناء الحروب الصليبية حينما كان القساوسة يجوبون أطراف أروبا ليبثوا الدعاية للحرب بين الشبان وليأخذوا المساعدة المالية من العاجزين عن حمل السلاح لمواجهة تكاليف الحرب ، فان الأوامر السلطانية تصدر هنا أيضا وتحث المؤمنين على المساعدة بالمال للنّضال من أجل القضية المشتركة . وكذلك انتشر المرابطون في أصقاع الصحراء ليحثوا سكان الفيافي على امتطاء جيادهم ويسارعوا الى ميدان القتال للفوز بالشهادة ولنيل الجنة حيث تنتظرهم نعم الله . وهذا الايمان يبعث الرضى والسعادة في نفس أولئك الذين يعتنقونه .

وكما قال الشاعر الانجليزي ، ثوماس مور :

« اغفرلـي يا الهي ! فاذا كانت الجنة كما يصفها محمد ، فاني سأعبد الله ! »

لو استطعت أن أعتقد في الجنة وما ينتظر الشهيد فيها من النعيم ، لوفرت على صديقي الأمير عبد القادر رثاءه لحالى من حيث أنني كافرٌ محتوم المصير . وإذا لسَارعتُ ولعملت جهذي للحصول على الكفن الأبيض وعلى أربعة من حملة النعش الأوفياء ليخرجوني من هذه الدنيا الزائلة ليلقوا بي في أحضان الجنة التي تغري المجاهدين بالاستشهاد في سبيل الله.

كان اليهود منهمكين جدا في العمل في غضون الأيام القليلة الماضية لتبييض منازلهم استعدادا للاحتفال بعيد الفصح الذي يبدأ يوم الغد . والمعروف أن مظاهر الاحتفال الأنيق بهذا العيد تختلف بين بلد وآخر . فبينما يقيم الناس زينة الاحتفال في الصين بطول الأظفار ، نجد أن عظمة الاحتفال بعيد الفصح في هذا الجزء من العالم تتجلى في ألوان الملابس ، أو على الأقل ، ملابس السيدات . وبمناسبة هذا العيد تقوم اليهوديات لا بصبغ أظافرهن فحسب ، بل وأيضا أيديهن . والطريقة التي يسرن عليها في هذه الزينة ، هي أن يقمن بإعداد عجينة من الحناء ويغطين أيديهن بطبقة كثيفة منها ثم يلففنها في عصابات طوال الليل . وفي الصباح تسقط قشرة الحناء وتصبح الأيادي الناعمة حمراء جميلة ! وهذه الصبغة تبقى ثابتة مدة ثمانية

أو عشرة أيام . وفي نهاية الأيام الثمانية التي تستغرقها احتفالات عيد الفصح ، يغسلن أيديهن ثم يعدن الى ممارسة بقية أعمالهن .

6 أبريل — وصلت قافلة كبيرة من تلمسان قادمة عن طريق فاس . ولمّا عرفوا أننا عازمون على السفر الى تلمسان أبدوا رغبتهم في السفر معنا . وكذلك أبلغونا أن السيد « ابنصور » سيصل في اليوم التالي . والطريق التي تمتد من هنا الى تلمسان تمر بصحراء « أنكاد » ، وهي عامرة بأخطر لصوص افريقية . وكذلك تقدم الينا عدد كبير من العرب وأبدوا رغبتهم في السفر مع هذه القافلة الكبيرة التي ترافقها قوة عسكرية .

وفي غضون الليل ، كان ربُّ المنزل وأصدقاؤه يقرعون آذاننا بالأغاني والتراتيل الدينية . وبينما يتضرع الحاج طالب وسلطان المغرب الى الله أن يسحق الفرنسيين ويردهم على أعقابهم ، يغني هؤلاء اليهود الليلة بانتصارات قومهم المزعومة في مصر ! وهم في نفس الوقت لا ينسون أن يتضرعو الى الله أن يهلك جميع المسيحيين والمسلمين على السواء ويقضي عليهم الى أبد الآبدين ، حتى تظهر أمتهم العظيمة على صفحات التاريخ مرة أخرى . ولكنه قبل أن يحل ذلك الوقت ينبغي على اليهود أن يكونوا أقل خوفا وهلعا حتى لا يتعرضوا للرصاص والصلب ... وهم على كل حال لا يعالجون في الوقت الحاضر هاتين المادتين (بوصفهم أمة) الا بالتجارة فيهما !

على أن لكل قاعدة استثناء . وهذا ما سنراه في سلوك السيد « ابنصور » في الطريق الى تلمسان .

ربما كان الآلاف من الاتقياء من جيراننا (أي الفرنسيين) يوحدون الآن صلواتهم ويجأرون بدعواتهم الى الله في كنائسهم وخصوصا في كاتيدرائية « نوتردام » ، ليسترحموا العناية الالهية لكي تناصر « الدم الملكي » (*) وذوي الشوارب الشجعان الذين يحاولون جهدهم غرس الصليب في البقاع التي يرجح أن يبقى الهلال فيها وقتا طويلا صاحب

(*) العلامة في الاصل .

السيادة . كم من جريء قام أو يقوم الآن بجني آخر قبلة من شفاه حبيبته وهو يعدها بأن يعود اليها ورأسه متوج باكاليل الغار ؟ ومثل أبطال قصة « مسرغان » (1) المشهورة ، فسيقول هذا الشجاع لحبيبته أنه سيلقي بتلك الأكاليل عند اقدامها على انغام الموسيقى وأناشيد الشعراء المتجولين ... ولكن مصير هذا الشجاع يختلف عن ذلك كل الاختلاف. والمرجح أنه سيلفظ أنفاسه الأخيرة على فراش المرض أو في مكان مجهول في الخلاء . فان المعروف أنه من غير الممكن استعمال حمالة لنقل الجرحى من ميدان القتال حيث يتركونهم مع مصيرهم المحزن في معظم الحالات . ان مصيرهم محزن حقا متى سقطوا في أيدي بعض العرب . وأما العناية الطبية والجراحون ، فهي أمور نادرة في أراضي الأمير . والجراح هنا انما تبرأ بفضل عمل الطبيعة . وموت الجندي في المعركة شيء غير مرعب ، ولكن المرعب هو أن يتقلب عدة شهور على فراش المرض أو يصل الى قبره عن طريق التعذيب البطيء . وكم من هؤلاء الشجعان يتنزى من الألم نتيجة لجراحه وهو يحلم تحت وطأة الحمى بعصا المريشال !

ما أحقر الضغائن والأحقاد التي تعتلج في نفوس الأفراد وتقض مضاجع الأمم ، في نظر تلك القوة التي تحكم عدة عوالم تظهر الكرة الأرضية أمام كل منها صغيرة متواضعة ! ولربما كان سكان جميع هذه العوالم متنوعين وينتمون الى أجناس مختلفة مثل سكان هذه الأرض . وليس من شك في أن العلاقات بين الأفراد والأمم فيها تقوم على المشاحنة والعداوة ، مثلما هي الحال بيننا نحن في الأرض .

كيف نفصل بين الاعداء ونعيد السلام الى العلاقات الدولية ؟ إن القاعدة الذهبية في رأيي لهذه التسوية بين جميع العقلاء ، هي تلك التي تقول : «عامل الناس بمثل ما تحب أن يعاملوك به» . إن التجربة التي استخلصتها من معاملة الناس ، هي أنه يوجد عدد كبير

(1) مسرغان قرية تقع غير بعيد من أرزيو . قام هذا الحصن في سنة 1840 بمقاومة صامدة في وجه قوة عربية يبلغ عدد رجالها 7000 جندي وضابط بقيادة ابن عراش . وبهذه المناسبة تلقى جميع الجنود الذين تتكون منهم حامية الحصن ، ميدالية شرفية . وأما الضباط وضباط الصف ، فقد تلقوا جوقة الشرف التي أعتقد أنهم قد استحقوها لشجاعتهم في هذه المناسبة (تعليق المؤلف) .

من المسلمين الأخيار ، كما يوجد عدد كبير من الرجال والنساء الأخيار بين أبناء الديانات الأخرى . ورجائي أن تتسع الجنة لنا جميعا وتتحقق النبوءة القائلة : « لا يوجد سوى قطيع واحد وراع واحد » .

* * *